

أنداء الفجر

أحمد زكي أبو شادي



أنداء الفجر

أنداء الفجر

تأليف
أحمد زكي أبو شادي

رقم إيداع ٢٠١٣/٨٩١٤

تدمك: ٠ ٢٩١ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

كلمات عربية للترجمة والنشر

جميع الحقوق محفوظة للناسر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئلة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه
ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١ +

البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org

الموقع الإلكتروني: <http://www.kalimat.org>

الغلاف: تصميم سحر عبد الوهاب.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لشركة كلمات عربية
للترجمة والنشر. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2013 Kalimat Arabia.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧

إهداء الديوان

٩

تصدير

١٣

شعر الديوان

٤١

دراسات أدبية

إهداء الديوان

إلى زَيْنَب

شُعْلَةُ الْحُبِّ عَنْ وَثُوبٍ وَوَمَضٍ
وَفُؤَادِي بِنَبْضِهِ أَيْ نَبْضِ
وَيْ أَمَامِي فِي كُلِّ صَحْوٍ وَغَمَضٍ
مَرَحَبًا بِالْخَيَالِ لِمَسِي وَقَبْضِي!
كَنْثِيرِ الْحَيَا عَلَى زَهْرٍ رَوْضٍ
بَاكِيًا لَاهِيًا بِأَنْسِي وَرَكْضِي
مَنْ حَيَاكَ السَّخِيَّ لَا جُودَ أَرْضِي
نَظْرَةَ الْحُبِّ يَنْتَفِضُ مِثْلَ نَفْضِي
وَحَضَعْنَا لِحُكْمِ دَهْرٍ مُمِضٍ
نِ عَلَى ذَلِكَ الصَّبَا الْمُنْقَضِ
فِي وِفَاءٍ وَلَيْسَ غَيْرُكَ حَفْضِي!

رُبُّعُ قَرْنٍ مَضَى وَهَيْهَاتَ تَمْضِي
لَمْ أَزَلْ ذَلِكَ الْفَتَى فِي جُنُونِي
ذِكْرِيَّاتُ الْهَوَى وَأَشْبَاحُهُ النَّشْ
أَنَا مِنْهَا فَكَيْفَ أَرْتَدُّ عَنْهَا؟!
نُشِرَتْ فِي السُّطُورِ بَعْدَ احْتِجَابٍ
فَإِذَا بِي أَعُودُ طِفْلًا صَغِيرًا
فَأَقْبَلِي يَا سَمَاءَ وَحْيِي زُهُورًا
وَأَعْيِدِي عَلَى الصَّبَا فِي نَظِيمِي
كَمْ شَقِينَا تَفَرُّقًا وَحِيَاءَ
وَرَجَعْنَا نَنُوحُ نَوْحَ يَتِيمِي—
عَلَمَ الْحُبِّ لَيْسَ غَيْرُكَ مَجْدِي

يولية سنة ١٩٣٤

أحمد زكي أبو شادي

تصدير

بقلم محمد عبد الغفور

لا أعرف لذةً روحيةً أشهى لديّ من كتابة هذا التصدير للطبعة الثانية من ديوان (أنداء الفجر) — أول دواوين أبي شادي — فقد تجاوزت روحي مع عواطف هذا الشاعر العبقري وأخيلته العلوية تجاوبًا هو سر سعادتي النفسية كلما اصطحبتُ روائعه الساحرة وتمثلت شخصيته الأسرة.

لقد مضى ربع قرن على هذا الشعر الفتّي، وأعلم أن أبا شادي هو أول ناقد له، فهو دائم التطلع إلى الكمال ولا يرضى عن آثاره الحاضرة فما بالك بآثاره القديمة، ومع ذلك فآثار الصبا لها جمالها ولها ذكرياتها العذبة وإن اقترنت بالألم الدفين، وإن لم تخلُ من ضعف ... وإذن فقد أحسن شعراء أبولو الذين ألحوا بإعادة طبع هذا الديوان الصغير، فإن فيه ذكريات عزيزة لا يستطيع أبو شادي نفسه أن يتجاهلها؛ فهو ما يزال يقتات منها، وإن فيها لبذرة من بذور الإصلاح التي كونت مدرسة الشعر المصري الحديث، وإن فيها لدلائل كافية على الشمائل الأدبية والمواهب الفنية التي طُبع عليها شاعرنا وضمنت له ما نال من تفوق.

لا أريد أن أسهب في هذا التصدير فأرائي في شعر أبي شادي معروفة،^١ وسأكتفي بالتنبيه إلى المواضع النقدية البارزة:

(١) يلاحظُ بسهولة أنَّ أبا شادي الفتى هو أبو شادي الكهل: شاعر الحب والجمال، ومن الطبيعي أن يكون ذلك من روح الصبا ولكنه روحٌ قويٌّ متصلُّ الأسباب والنَّوازِع حتى الآن. وأبو شادي الفتى يتأمر عليه الحياء (وهو يصرح بذلك في أكثر من موضع في شعره)، ولا يزال هكذا أبو شادي الكهل، ولا ترى شذوذه عن ذلك في شعر كهولته إلا نادراً، وربما لم يكن له شخصياً فضلاً في مصارعة ذلك الحياء الذي أفسد عليه حياته العاطفية، وهو دائماً التسامي في حبه، ولو حاول عكس ذلك فسرعان ما يلتجئ بفطرته ثانياً إلى ذلك التسامي. وهذا الديوان الصغير لا يمثل نكبته الغرامية فيما بعد، ولكنه يمثل قلقه أصدق تمثيل في تلك الفترة من حياته.

(٢) نرى أن الألم الممض يلجُ بالشاعر منذ حدثته: وآية ذلك أنه نشأ نشأة حزينة قاسية مبعثها الفرقة بين الوالدين، فذاق ألواناً من الحرمان والهموم واقتات بالكآبة والألم منذ طفولته، وزاده اعتلال صحته في صغره. بيد أنه مثال مجسم للشم وعزة النفس منذ نشأته، معتدّاً دائماً بها ولكن في غير غرور، شأن الفنان الموهوب الكمالى النزعة. وقضى الشاعر صباه في عهد من القلق السياسي الذي ثارت فيه نفوس الشبان، فنرى آلام الوطنية متوثبة متأججة من بيوت شعره، ونسمع صيحته:

قَلِيلٌ عَلَى الْأَحْزَانِ مَا انْهَدَّ مِنْ جِسْمِي إِذَا كَانَ عَيْشُ الْحُرِّ أَشْبَهَ بِالْإِثْمِ!

(٣) نرى أن ولوع أبي شادي بالمعنويات هو هو منذ حدثته (انظر قصيدته «المعنى الأقدس»)، كما نرى افتتاحه منذ نعومة أظفاره بحياة الطبيعة ورموزها — ولا أقول بمشاهدها فقط — متغلّباً عليه، ونلمح حبه للاطلاع (انظر قصيدة «موسيقى الوجود»)، وجراءته في التخيل والتعبير (انظر قصيدة «الخالق الفنان»)، وإنسانيته العميقة وتأملاته الفلسفية (انظر «فؤادي» و«مسرح الليل» و«أنداء الفجر» وأمثالها من شعره). وإن كانت نماذج ذلك الشعر بعيدة بطبيعة الحال عن أن تمثل نضوجه الفني الحاضر، ولكنها جميعاً لها طابع شخصيته الطليقة القوية.

^١ راجع كتاب (أبو شادي في الميزان).

(٤) لا يمكننا أن نحدّد شعر أبي شادي فنضعه في قسم معين؛ لأن نفسه طموحة متعددة الجوانب عالمية النظرات، وشواهد ذلك لا تخفى على الناقد حتى في شعر صباه الذي يسبق سنه بمراحل بعيدة.

ولكن لنا أن نقول: إن أبا شادي في شعره لا يخاطب جيله وحده بل يخاطب أجيالاً لم توجد بعد ويخاطب الغيب والمجهول، وله شره فكري وروحي فلا يقنع بشيء مما يراه أو مما ينظمه. وهو برغم قوته أمين كل الأمانة للطبيعة، فلا ترى فيه الخيال الفاسد ولا الأوصاف الميكانيكية ولا المغالطات المنطقية ولا المحاكاة التي يلجأ إليها الضعفاء وأهل الصناعة، وإنما تجد روحاً جبارة شاملة، عظيمة الشره، قوية الطاقة إحساساً وتفكيراً، طموحة إلى الكمال الفني، تستلهم الوجود بأسره كما تستلهم ملكاتها الذاتية، لا تقنع أبداً بإبداعها وإن عظم ذلك الإبداع، وتشعر دائماً بحسرة على ما عجزت عن تبليانه، متناسية ما أنجبته كأنه لا شيء، فتعيش دائماً في قلق وظماً ولهفة.

(٥) نلمح السخط على البيئة في شعر أبي شادي منذ صباه، ونلمح هذا السخط مضاعف الشعلة في دواوين شعره الحديث بعد غيابه الطويل في إنجلترا. ولا عجب في ذلك فقد نشأ شاعرنا من الوجهة الثقافية والنفسية نشأة عالية لم تفسدها المتاعب والهموم العائلية في طفولته وصباه وإن صبغتها بلون قاتم، واتخذ خلقه الإنساني صوراً عملية شتى من البر والوطنية والتضحية لازمتها منذ نشأته، فكان رجلاً ناضجاً وهو في سن الشباب. ولبت يعمل ويضحى بينما يقنع كثيرون بالثرثرة والدعابات إلى وقتنا هذا، فيلاقي الوفاء مرة ويلاقى الجحود مرات، وقد صدق عليه قول الأحوص في لاميته المشهورة:

متحملٌ ثقلَ الأمورِ حوى له	سبقَ المكارمِ سابقٌ مُتَمَهِّلٌ
وتكون معقلهم إذا لم ينجم	من شرٍّ ما يخشون إلا المعقل
وأراك تفعل ما تقول، وبعضهم	مذق الحديث يقول ما لا يفعل

وما زال على هذا الخلق الفذّ النبيل والنشاط العجيب إلى وقتنا الحاضر الذي يحمل فيه على كتفيه من الأعباء العامة ومن خدمة الثقافة العالية ما تنوء دونه الجماعات ... والرجل يبذل دم قلبه وعصارة روحه ونور عينيه ورزقه ورزق أولاده فيما كُلف به من مُثُلٍ عليا، فلا يلاقي في معظم الأحوال غير الإساءات والجحود، بل والمن أيضاً من كثيرين ممن غمرتهم ديمقراطيته الأدبية بحبه وإحسانه ومؤازرته الجمّة، فلم يعنهم

من كل هذا إلا أن يترعرعوا بفضل رعايته، وإلا أن يصعدوا على أكتافه ثم يَعَضُّوا اليد الكريمة التي خلقتهم من لا شيء، أو التي أخرجتهم من الظلمات إلى النور ... ولا أتردد في أن أقول غير مدافع: إن أبا شادي الرجل الإنساني والمثالي الشاعر، هو رجل التضحية المنقطع النظير في هذا البلد الذي كثيراً ما اعتزّ فيه المهرجّون وأدباء المقاهي. ولم يحاربه ولن يحاربه إلا المخدوعون وأهل الأراجيف والأدعياء، وحيويته العملية هي حيوية شعره الخالد، وشكواه من البيئة هي شكوى الطعين الغيبين الذي مهما شكّا فلن يعرف الحقد سبيلاً إلى قلبه الطاهر، ولن تنال الأحداثُ مثقالَ ذرة من عزمه الفولاذي ولا من نفسه الوديعّة القاهرة.

هذه هي الصفات النفسية البارزة التي تألّف وما يزال يتألّف منها شعر أبي شادي، والتي نحيتها في شعر صباه كما نحيتها في شعر شبابه وكهولته. وشاعرنا واسع الاطلاع والتجارب، بعيد الجراءة، كاره للتقاليد الجامدة وإن لم يكن هو من المتجرّدين، وكلّ هذا ملموح في غاياته الشعرية وفي أساليبه. وإذا استثنينا زفراته وصرخاته المتكررة في وجه البيئة الجاحدة العاقبة، فإننا لا نجد أبا شادي من يعبأ بعد ذلك بالناس إلّا من ناحيتين: الناحية المثالية التي يتطلع إليها تطلع الأنبياء للتسامي بالإنسانية، والناحية الفنية المحضة من اتخاذهم مادةً كبقية مواد الطبيعة لشعره الحي.

شعر الديوان

(١) أُنْدَاءُ الْفَجْرِ

مِنْ دُمُوعِ النُّجُومِ، مِنْ سَهَرِ الْعَا
فِي حَنَانٍ وَرَقَّةٍ وَهِيَ لَا تَمُ
فِي تُغُورِ الْأَزْهَارِ، فِي أَلْقِ الْعُشْ
وَهَبَتْ حُسْنَهَا الضَّحِيَّةَ لِلشَّمْسِ
وَيَعُودُ الْفَجْرُ الْوَفَى بِهَا بَعْدَ
هِيَ مِلْكُ لَنَا حَيَاةً وَمَوْتًا
بِشَقِ صَيَغَتِ وَمِنْ رَجَاءِ الْحَيَاةِ
لَكَ مِنْ عُمْرِهَا سِوَى لَحْظَاتِ
بِ، وَفَوْقَ الْغُصُونِ تَحْيَا وَتَفْنَى
سِ كَأَنَّ الْفَنَاءَ لِلشَّمْسِ أَغْنَى
حَتَّى وَلَكِنْ تَعُودُ تَمْضِي الضَّحِيَّةُ
وَهِيَ بِالرُّوحِ صُورَةُ الْأَبَدِيَّةِ

(٢) الحب والأمل (نظمها الشاعر وهو عليل)

وَفَى الرَّبِّيعُ فَحْيُ الْحَبِّ وَالْأَمَلِ
وَاحْفَظْ حَدِيثَ الْغَوَانِي فِي أَزَاهِرِهِ
مِنْ كُلِّ هَيْفَاءٍ إِنْ مَاسَتْ وَإِنْ نَظَرْتُ
رَنْتُ إِلَيَّ بِلَحْظٍ نَاطِقٍ لَعِبٍ
وسائلُ الذِّكْرِ إِنْ كَانَ الْفَوَادُ سَلَا
وَاحْرِصْ عَلَى النَّفْسِ أَنْ يُدْنِيَ لَهَا الْأَجَلَا
لَمْ تَتْرِكْ الْقَلْبَ إِلَّا حَائِرًا وَجَلَا
وَالسَّحَرُ إِنْ عَزَّ لَا أَبْغِي لَهُ بَدَلَا

عَنْ حَالٍ مَنْ كَانَ لَوْلَا الْعَهْدُ مُرْتَجِلًا^١
إِلَى الْعُهُودِ فَيُثْنِي جَازِعًا حَجَلًا
مَا عَاهَدَ الْبَدْرُ أَنْ يَرعَاهُ مِمْتَثَلًا
أَوْ مَاتَ أَزْجَى الْمُنَى مِنْ قَبْرِهِ رُسَلًا
وَرُبَّ صَوْتٍ ثُنَى^٢ مِنْ هَمِّهِ وَجَلًا
يَوْمَ اللَّقَاءِ، فَأَمَّا فِي الْوَدَاعِ فَلَا!
وَقَرَّبَ الْحُسْنَ مَثْوَاهُ لَهُ فَحَلَا
مِنْ الْجَمَالِ، وَمَا أَهْنَاهُ لَوْ وَصَلَا

يَا رَائِقَ الشُّعْرِ هَلْ بَلَّغْتَنَا نَبَأً
يَخْطُو إِلَى الْمَوْتِ وَالْآلَامِ تَلَفْتُهُ
لَيْتَ الْوَفِيِّ الَّذِي تُنْسَى مُرْوَعْتُهُ
إِنْ عَاشَ كَانَتْ عَلَى التَّسْهِيدِ نَضْرَتُهُ
لَا يَسْتَقِرُّ لَهُ رَأْيٌ عَلَى سَبَبٍ
سَهْلٍ لَدَيْهِ التَّأْسِي عَنْ مَدَامِعِهِ
رَأَى النَّعِيمَ هُمُومًا فِي صَبَابَتِهِ
مَا أَجْزَعَ الصَّبَّ يُبْكِيهِ مُتَيَّمُهُ

يَا رَبَّ لَحْظٍ وَلَفْظٍ فِي الْهَوَى قَتَلَا
نَمَتْ عَلَيْهِ، وَلَا أَخْفَتْ لَهُ مَثَلَا
وَقَرَّبْتَنِي وَقَالَتْ حَسْبُنَا جَدَلًا!
فَانْسِ الذُّنُوبَ، وَلَا تَعْتَبْ لِمَا فَعَلَا
وَالنُّورُ كُنْزٌ مَعَانِ تُبْهِجُ الْمُقْلَا
وَادْعِ النَّسِيمَ وَلَحْنٌ بَعْدَهُ زَجَلَا
مِثْلِي النَّسِيمُ بَدَا مِنْ رَقَّةٍ ثَمَلَا
فِيهِ الظُّنُونُ فَخَلَّى إِلْفَهُ وَعَلَا
حَتَّى يَخَافَ، وَلَكِنْ لَسْتُ مَنْ عَدَلَا
مَا كُنْتُ بِاعِدْتَنِي لَوْ كُنْتُ مَنْ عَدَلَا
هَذَا الْغَمَامُ عَقُودًا نَضْرَةً وَحُلَى
يُبْكِي وَيَلْعَبُ بِسَامًا وَمُقْتَتَلَا
تُفْشِي حَدِيثَ الدُّجَى، لَا تَعْرِفِ الْخَجَلَا!
يَأْبَى عَلَيْنَا الْهَوَى أَنْ نَتْرُكَ الْغَزَلَا

وَدَعْتُ هَمِّي، وَهَمِّي كُلُّهُ أَمَلٌ
مَرَّتْ كَحُلْمٍ يُجَارِيهِ الدَّلَالُ فَلَا
وَدَاعَبْتَنِي بِصَوْتٍ خَافِتٍ وَبَكَتْ
الدَّهْرُ فَرَّقَنَا، وَالدَّهْرُ أَلْفَنَا
الْكُونُ زَاهٍ قَشِيبٌ، وَالظَّلَامُ سَنَا
فَاجِلُ الْقَرِيضِ وَحَدَّثَ طَائِرًا غَرِدَا
فَسِرْتُ فِي الرُّوضِ مِنْ فَرَطِ الْهَوَى ثَمَلَا
وَالطَّيْرُ ذَانُ فَلَمَّا جِئْتَهُ خَطَرْتُ
وَاللَّهِ لَسْتُ الَّذِي يَرْضَى السُّهَادَ لَهُ
يَا طَيْرُ أَلَمْتَ نَفْسِي — كُلُّنَا دَنَفُ
وَيَا زُهُورًا كَسَاهَا مِنْ مَدَامِعِهِ
وَيَا شُعَاعًا سُحِرْنَا مِنْ تَأَلَّقِهِ
وَيَا نَجُومًا تُوَاظِنَا وَمَا بَرَحْتُ
وَيَا أَدِيمًا جَلَسْنَا فِي بَدَائِعِهِ

^١ راحلاً من هذا العالم. يشير إلى مرض سابق.

^٢ ثنى: طوى.

وَيَا مَلَاكًا يُحْيِينَا وَمَا فَتَتْ
وَيَا زَمَانًا نَعْمَنَا مِنْ نَضَارَتِهِ
وَيَا رِبُوعًا وَقَفْنَا فِي مَعَابِدِهَا
لَا قُلْتُ مَعْنَى يَرُوقُ الشَّعْرُ جَوْهَرُهُ
مِنْهُ اللَّحَاطُ سَهَامًا ... لَيْتَهُ غَفَلَا
وَالْأُنْسُ وَقَفَ عَلَيْهِ دَامَ أَمْ أَفَلَا
أَسْرَى الْجَمَالَ، نَزَفُ الْحُبِّ وَالْأَمَلَا
لَوْ أَنَّ بَعْضَ نَعِيمِي مِنْ هَوَاكِ خَلَا!

(٣) حياتان

أُمِّي (الطَّبِيعَةُ)! فِي نَجْوَاكِ إِسْعَادِي
وَفِي حِمَى إِخْوَتِي مِنْ كُلِّ طَائِرَةٍ
مَا بَالُهَا هِيَ صَفْوِي وَحْدَهَا فَإِذَا
كَأَنَّهَا النَّاسُ أَعْدَاءُ: فَبِعُضُّهُمْ
وَفِي ابْتِعَادِي أُعَانِي دَهْرِي الْعَادِي
وَكُلُّ نَبْتٍ نَبِيلٍ وَحَيْكِ الْهَادِي
رَجَعْتُ لِلنَّاسِ لَمْ أَظْفَرْ بِإِسْعَادِ
حَرْبٍ لِبَعْضٍ وَحُسَادٍ لِحُسَادِ!

(٤) حظ الناقمين

فُؤَادِي بِرَغَمِ الْحَادِثَاتِ كَبِيرُ
تَلِينٍ لِي الْأَيَّامُ فِي كُلِّ شِدَّةٍ
سَلَخْتُ مِنَ الْأَعْوَامِ بَضْعًا وَعَشْرَةً
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِي الْقَلْبِ لَوْعَةٌ
وَمَا انْقَطَعَتْ أَسْبَابُ أَنْسٍ وَنِعْمَةٍ
وَطَرْفِي وَإِنْ عَزَّ الْعَفَافُ كَسِيرُ
وَلَوْ أَنَّ جُلَّ الْفَاتِحِينَ أَسِيرُ
أَقِيمَ عَلَى دِينِ الْعُلَى وَأَسِيرُ
عَلَى أَنَّ كُلِّي هِمَّةٌ وَمَرِيرُ^٣
وَلَكِنَّ حَظَّ النَّاqِمِينَ عَسِيرُ!

^٣ المريد: العزم.

(٥) التبرم

يَا رَبِّ! كَيْفَ خَلَقْتَنِي مُتَبَرِّمًا
أَتَرَكَ أَنْتَ مُعَلِّمِي، وَكَأَنَّمَا
بِالنَّاسِ حِينَ وَدَدْتُ هَذَا النَّاسَ
قَدْ عِشْتُ فِي نَدَمٍ وَعِشْتُ تُوَأْسِي!

(٦) الألوهية

مَلَكْتَ قَلْبًا عَلِيًّا
فَرَأَيْتَ اللَّهَ فِيمَنْ
وَسَائِلِ اللَّحْظِ عَمَّنْ
وَسَامِحِ الْعَبْدِ يَوْمًا
جَنَى الْغَرَامُ عَلَيْهِ
فُؤَادُهُ فِي يَدَيْهِ
يَذُوبُ شَوْقًا إِلَيْهِ
فَأَنْتَ رَبُّ لَدَيْهِ

(٧) الشاعر المصور

(أصلح الشاعر ببراعته صورة حبيبته التي لم يحسن المصور إخراجها)

كَذَبَ الضَّيَاءُ عَلَى الْمَصُورِ مَرَّةً
فَوَضَعْتُ فِي كَفِّي يِرَاعَةَ عَاشِقٍ
وَنَقَشْتُ تَأْثِيرَ الْعُيُونِ لِأَنْبِي
أَخْفَى بِهَا الْمَشْهُودَ مِنْ آيَاتِهَا
كَانَ الْبَيَانُ يَجُولُ فِي لَفَاتِهَا
أَدْرَى بِوَقْعِ السَّحْرِ مِنْ نَظَرَاتِهَا

٤ أي يقدمه إليك.

(٨) قوس قزح

مَلْهُي السَّمَاءِ يَرِثُنَا بِنْتِيرِهِ
وَالسُّحْبُ تَلْعَبُ فِيهِ لَعَبَةً صَاعِدٍ
وَالْمَاءُ ذَوْبُ أَشْعَةٍ وَأَغَانِي
أَوْ هَابِطُ دَرَجَا مِنْ الْأَلْوَانِ!

(٩) على صفحة الماء

يُشَقُّ الْقَارِبُ الْمَرْهُوُّ مِثْلِي
فَيَكْسِرُ صَفْحَةً لِلْمَاءِ رَاقَتْ
طَرِيقًا فِي الْمِيَاهِ مَعَ ابْتِهَاجِي
وَنَسْمَعُ صَوْتَ تَكْسِيرِ الزُّجَاجِ!

(١٠) إلى سجين القلم (محمد فريد بك)

مَنْ كَانَ يُدْرِكُ فِي الْوُجُودِ هَوَاكَ
لَسْتُ الَّذِي يَجِدُ الْحَيَاةَ بِغَفْلَةٍ
نَفْسٌ لَدَيْهَا الْمَجْدُ خِدْمَةٌ قَوْمَهَا
تَشْقَى وَتَضْرَعُ أَنْ تَمُوتَ عَلَى هُدًى
حَجَبُوا سَنَاكَ عَنِ الْعُيُونِ وَمَا دَرَوْا
أَكْرَمْتَ نَفْسَكَ هَادِيًا وَمَفَادِيًا
وَالْحُرُّ أَوْلَى أَنْ يَجُودَ بِنَفْسِهِ
سَيَانٍ كُنْتَ بِنِعْمَةٍ أَوْ نِقْمَةٍ
سَيَانٍ كُنْتَ مُقَرَّبًا أَوْ مُبْعَدًا
وَكِفَاكَ فَخْرًا أَنْ تُنَاضِلَ دَوْلَةً
وَالْعَمْرُ سَاعَاتٍ يَطِيبُ أَمْرَهَا
أَسَفًا عَلَيْهِ إِذَا بَكَى وَلَحَاكَ
وَيَعَافُ فِي بَثِّ الْيَقِينِ حِرَاكَ
تَسْتَعِذُّ بِالْآلَامِ وَالْإِنْهَاكَ
لَا تَرْهَبُ الْأَعْلَالَ وَالْأَشْرَاكَ
أَنَّ الْقُلُوبَ خِلَالَهُنَّ سَنَاكَ
شَعْبًا يُقِيمُ عَلَى الدَّوَامِ فِدَاكَ
مَنْ أَنْ يَرُومَ عَنِ الصَّوَابِ فِكَاكَ
مَا دُمْتَ تُرْضِي بِالْجِهَادِ حِجَاكَ
مَا دَامَ حَرْبُ الْعَابِثِينَ مُنَاكَ
كَمْ أَزْهَقْتَ مِنْ مُصْلِحِينَ سَوَاكَ
لَوْ أَنَّ فِي حَسَمِ الضَّلَالِ هَلَاكَ

(١١) عَهْدُ الصَّبَابَةِ

خَطَرْتُ فَمَكَّنْتَ الْهَوَى تَمَكِينًا
نَزَعْتَ بِرِقَّتِهَا الشُّعُورَ فَأَشْفَقْتُ
تَخَشَى الْمَلَامَةَ فِي الْغَرَامِ إِذَا عَفْتُ
عَوَّدْتُ مَرَّ الْعَيْشِ حَتَّى لَمْ أَبْتَ
مَا يَنْفَعُ الصَّبَّ الْكَثِيبَ مِنَ الْجَوَى
أَسْفِي عَلَى عَهْدِ الصَّبَابَةِ لَمْ يَكُنْ
أَسْفِي عَلَيْهِ وَقَدْ فَقَدْتُ شَبَابَهُ
وَوَهَبْتُ فِيهِ فُؤَادِي الْمَغْبُونَا
أَمَلًا، وَعِشْتُ مُتَيِّمًا مَفْتُونَا
مِنْ هَيْبَةٍ، مُسْتَغْفِرًا، مَسْجُونَا
مَنْ لَا يَزَالُ عَلَى الْوَفَى ضَنِينَا

(١٢) غدر الجمال

بَسَمْتُ فَمَا فَتَكَتْ وَمَا عَبَثْتُ
وَرَنْتُ فَمَا أَحْيَيْتُ وَمَا قَتَلْتُ
اللَّهُ فِي حُسْنٍ يَحِيرُنَا

إِلَّا بِمَهْجَةٍ صَبَّهَا الْعَانِي
إِلَّا الْمَشُوقَ لَطَرْفَهَا الرَّانِي
مِنْ لَحْظِهَا الْمَتَخَشِّعِ الْجَانِي

(١٣) بعد الفراق

وَيَوْمَ أَثَارَ الْبَيْنُ كَامِنَ لَوْعَتِي
وَأَغْرَقْتُ فِي شَكْوَى تُخَفِّفُ مِنْ هَمِّي °

تَهَالَكْتُ مَا بَيْنَ الصَّبَابَةِ وَالسَّقَمِ
وَهَذَا الشَّقَاءُ الْعَذْبُ مِنْ مُنْتَهَى هَمِّي^٦
إِذَا زَادَ حِفْظُ الْعَهْدِ غَمًّا عَلَى غَمِّي
تُسَاقُ بِهَا الْأَحْرَارُ لِلْخَسْفِ وَالضَّيْمِ
وَحَلَفْتُهَا بَيْنَ التَّلَفَّتِ وَالْأَمِّ
فَأرسلت تَوْدِيعَ الْفُؤَادِ عَلَى الْيَمِّ
بِأَضْلَعُنَا بَيْنَ التَّكْتُمِ وَالنَّمِّ
تَفِيضُ لَدَى التَّذْكَارِ فِي مَذْمَعِي الْجَمِّ
وَمَا زَالَ مَمْلُوكًا عَلَى الطَّوْعِ وَالرَّغْمِ!

نَفَضْتُ الْكَرَى وَارْتَحْتُ لِلْبَثِّ بَعْدَ مَا
يَكَادُ يَكُونُ الْحُبُّ دِينًا أَعَزُّهُ
وَلَكِنْ يَهُونُ الْبُؤْسُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ
نَزَحْتُ عِيوفًا عَنْ بِلَادٍ أُحِبُّهَا
أَقَمْتُ بِهَا عُمْرًا عَلَى الْوَجْدِ صَابِرًا
ذَكَرْتُ بِهَا بَدْرًا ضَلَلْنَا لِبُعْدِهِ
سَلَامٌ عَلَى حُسْنِ دَفْنَا سِهَامِهِ
سَلَامٌ وَفِي نَفْسِي شُجُونٌ كَثِيرَةٌ
تَحَمَلْتُ قَلْبًا دَامَ رَهْنٌ وَدَادِهِمْ

(١٤) الطَّبُّ الْحَائِرُ

أَعْيَاهُ مَكْمَنُ عَلَّتِي وَدَوَائِي
أَلْفَ الْأَسَى لِيَتَسْفَلَ الْأَهْوَاءُ
أَوْ كُلُّ وَهْنٍ لِلْجُسُومِ بَدَاءُ
وَالْمَوْتُ مَوْتُ سَلَامَةِ الْأَرَاءِ
مَكْنُونَةٌ فِي أَنْفُسِ الضُّعَفَاءِ
قَدْ يَسْتَطِيبُ تَحَرَّقَ التُّمَسَاءِ
أَيْنَ الشُّعُورُ وَحِكْمَةُ الرُّحَمَاءِ؟
وَالْمَرْءُ صُورَةٌ حِسِّهِ الْمُتَرَائِي

نَظَرَ الطَّبِيبُ إِلَيَّ نَظْرَةَ نَاقِدٍ
وَالطَّبُّ يَقْصُرُ عَنْ شِفَاءِ مُسَهِّدٍ
مَا كُلُّ بَأْسٍ فِي الْجُسُومِ بِصِحَّةٍ
وَالْعَيْشُ عَيْشُ حَقَائِقٍ وَدَقَائِقٍ
نَفْسِي تُحَرِّكُهَا الْهُمُومُ إِذَا بَدَتْ
وَالنَّاسُ فِي هَذِي الْحَيَاةِ غَنِيَّهُمْ
أَيْنَ الْعُقُولُ وَأَيْنَ أَرْبَابُ النُّهَى؟
فِي الْقَلْبِ هَمٌّ لَا أَجَلَ بَغْيَرِهِ

^٦ اهتمامي.

(١٥) دمعة على قبر

(قلبت في حسناء انتحرت يأساً لفقد عزيز لديها)

عَلَيْكَ سَلَامُ الْحُبِّ فِي الْقُرْبِ وَالْهَجْرِ
وَبِنْتِ، وَهَذَا الْبَيْنُ أَقْرَبُ لِلْعَذْرِ
تَقَلَّبُ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْيَاسِ وَالصَّبْرِ
يَعِيشُ شَقِيَّ الْعُمُرِ فِي السَّقَمِ وَالْمُرِّ
حَنَانًا ... عَسَاهُ الْآنَ يُطْفِئُ مِنْ جَمْرِي
يَرُدُّ رَجَاءَ الْحَيِّ لِلتَّرَبِّ وَالْقَبْرِ
تَغِيبُ وَنَحْنُ الْيَوْمَ أَخَوَجُ لِلطُّهْرِ
يَجِفُّ بِلَا ذَنْبٍ جَنِينَا وَلَا عُذْرٍ
فَأَحْبَبْتِهِ حُبًّا وَإِنْ كُنْتُ لَمْ تَدْرِي
وَكُنْتُ أَظُنُّ الْعُسْرَ يُخْلَفُ بِالْيُسْرِ؟
وَأَنْتَ تَخَالُ اللَّيْنَ يُعْقَبُ بِالْخُسْرِ
وَشَتَّتَهُ فَقَدْ الْمَلَا حَةَ وَالْبِرَّ
نِدَاءُ شُجُونٍ يَزْدَحِمُنْ عَلَى صَدْرِي!

مُودَعَةً الْأَيَّامِ وَالْعُمُرِ شَقَوَةً
فَزَعَتْ مِنَ الدَّارِ الَّتِي طَالَ هَمُّهَا
نَفُوسٌ عَلَى الْوَجْدِ الَّذِي فِيكَ كُلُّهُ
تَلَمَّسُ فِي الْأَحْزَانِ سَلْوَى، وَهَكَذَا
أَمِيطِي لِنِثَامًا أَسْدَلُ الْمَوْتَ تَشْرِيقِي
حَرَامٌ عَلَى قَلْبٍ عَرَفْنَا كَمَالَهُ
حَرَامٌ عَلَى شَمْسٍ أَضَاءَتْ بِطُهْرِهَا
حَرَامٌ عَلَى رَوْضٍ نَمَوْنَا بِمَائِهِ
أَكَاَنَّ الرَّدَى حُلُومًا لِفَقْدِهِ
وَحَلَفْتُ أَمَلًا عَلَى الْعُسْرِ لَمْ تَحُلْ
فَيَا دَهْرُ مَا أَقْسَاكَ! لِلْبَاسِ غَايَةُ
حَنَانًا وَرَفَقًا بِالْأَلَى غَابَ أَنْسُهُمْ
دُمُوعِي وَإِنْ قَلْتُ — وَفِي الدَّمْعِ رَاحَةٌ —

لِنَذْكُرْهُ إِلَّا عَلَى الطُّهْرِ وَالْبِشْرِ
وَحُسْنُ حَوَاهِ النَّعْشِ فِي غَيْبَةِ الْبَدْرِ
وَلَا بُدَّ هَذَا الْجَمْعُ يُتَّبَعُ فِي الْإِثْرِ
فَمَا كُلُّ دَمْعٍ سَالَ عَنْ ذِلَّةٍ يَجْرِي
وَأَوْجِي إِلَى الْأَحْيَاءِ عَنْ مَحَبَّاتِ الْفَجْرِ
وَمَا الْحَطُّ كُلُّ الْحَطِّ فِي الشَّرِّ وَالْمَكْرِ
وَكَيْفَ وَكُلُّ النَّاسِ فِي جِيرَةِ السَّفَرِ
وَنُبُلُ رَوَاهُ النُّبُلُ فِي ذِكْرِكَ الْعَطْرِ
وَحَسْبُكَ أَنِّي لَا أَرْخُصُ مِنْ شِعْرِي
وَشَخْصُكَ فِي عَيْنِي مُقِيمٌ وَفِي فِكْرِي

وَأَنْتَ أَيَا سِرًّا مِنَ اللَّهِ لَمْ نَكُنْ
ذَكَرْتُكَ مَبْكِيًّا شَبَابُ خَذَلْتِهِ
بَخَلْتُ عَلَى الْوَافِينَ بِالْعَيْشِ وَالرَّدَى
فَلَا تَهْزِيئِي مِنْ عِبْرَةٍ هَاجَهَا الْأَسَى
وَلَا تَضْحَكِي مِنْ دَارِ جَهْلٍ وَنِقْمَةٍ
فَمَا الْبُؤْسُ كُلُّ الْبُؤْسِ فِي الْفَضْلِ وَالْهَدَى
وَلَيْسَ جَزَاءُ الْمَيِّتِ بِالْحَيِّ يَرْتَجَى
فَخَارُكَ فِي الدُّنْيَا عَفَافٌ عَبْدَتِهِ
إِذَا قُلْتُ لَمْ أَنْطِقْ عَنِ الرِّبْغِ وَالْهَوَى
جَمَالِكَ فِي نَفْسِي، وَذِكْرُكَ فِي فَمِي

(١٦) الدنيا

لَمَسْتُ قَلْبِي بِكَفٍّ مَسَّهَا وَجَلُّ
إِنْ كَانَ هَمِّي مِنَ الدُّنْيَا وَفَتَنَتِهَا
مَنْ الْخُفُوقُ فَلَمْ أَعْرِفْ لَهُ سَبَبًا
عَمَّ الْهُوَانُ فَمَا بَاتَ الشَّقَا عَجَبًا

(١٧) الرَّاحِلُ الْمُقِيمُ

(قيلت في جنازة المرحوم محمود عبد الغفار بك النائب الوطني الكبير والعضو بمجلس المعارف الأعلى)

مَاذَا تُؤْمَلُ مِنْ رَحِيمٍ صَامِتٍ
يَبْكِي عَلَيْهِ النَّاشِئُونَ وَمَا بَكَوْا
وَالذُّكْرُ يَفْقِدُهُ الْخُؤُونُ لِقَوْمِهِ
وَالْعَقْلُ أَسْخَفُ مَا يَكُونُ مُؤَلِّهَا
غَضُّوا الْعُيُونَ فَمَا الرَّجَالُ بِكَثْرَةٍ
وَأَصْغَوْا إِلَى صَوْتِ تَرَدَّدِ دَاوِيَا:
فَالْمَوْتُ أَصْدَقُ نَاطِقٍ عَنْ عِبْرَةٍ
وَالْخُلْدُ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ لَوْ أَنَّمَا
وَالْمَوْتُ حَقٌّ وَالْمُؤْمَلُ رَاحِلٌ؟
جَسَدًا يُشَيِّعُهُ الْجَبَانُ الْغَافِلُ
وَالْحَرُّ يَرْفَعُهُ الشُّعُورُ الْكَافِلُ
بَأْسًا يَعِزُّ بِهِ الذَّلِيلُ السَّافِلُ
وَابْكُوا فَقَدْ ذَهَبَ الْحَكِيمُ الْعَامِلُ
إِنَّ الْحَيَاةَ مَآثِرٌ وَجَلَائِلُ
وَالْفَضْلُ يَعْرِفُهُ الْأَبْيُّ الْفَاضِلُ
تُعْزَى إِلَيْهِ رَوَاتِبٌ وَمَنَازِلُ!

(١٨) شَفِيعِي

شَفِيعِي لَدَى الْحُسْنِ الَّذِي لَاحَ سِرُّهُ
خَيَالُ أَطَالِ الْحُبِّ مَثْوَاهُ أَمْنًا
إِذَا كَانَ لَا يَرْتِي لِضَعْفِي وَشَقَوَتِي
أَرْوَمُ النَّوَى — وَالْبُعْدُ فِي ذِكْرِهِ جَوَى —
وَمَنْ كَانَ لَا يُحْيِيهِ سَخَطٌ وَلَا رَضَى
بَعِيدًا وَمَا أَدْرِيهِ فِي لَحْظَةِ الْقُرْبِ
بِنَفْسِي، وَصَفُو الْعَيْشَ فِي سَكْرَةِ الْحُبِّ
فَإِنِّي بِرَغَمِ «الْعَهْدِ» أَشْكُو إِلَى رَبِّي
وَهَيْهَاتَ بَعْدَ الْبَيْنِ يُسْعِدُنِي قَلْبِي
فَكَيْفَ يُقْضَى الْعَيْشُ فِي حَيْرَةِ اللَّبِّ؟

(١٩) عيش الحر

إِذَا كَانَ عَيْشُ الْحُرِّ أَشْبَهَ بِالْإِثْمِ
وَحَوْلِي الْأَلَى يَبْكُونَ مِنْ خَشْيَةِ الْفَهْمِ!
إِذَا غَابَ نُورُ الْحَسِّ بِالْحَالِكِ الْجَمِّ
وَتَدَفَعَهَا الْأَطْمَاعُ لِلْخَسْفِ وَالضَّيْمِ
تَحَرَّكُهَا الْغَايَاتُ فِي الْقَيْدِ وَالْكَمِّ
أَحَقُّ بِفَقْدِ الذِّكْرِ لَا الْقَدَحِ وَالذِّمِّ!
وَمَا يَصْنَعُ الْمَغْلُوبُ بِالسَّيْفِ وَالسَّهْمِ؟
وَتَخْشَوْنَ مِنْ بَأْسِ الْحَقِيقَةِ وَالْعِلْمِ
نَهَشُ إِلَى الذِّكْرِ فَكُونُوا عَلَى وَجَمِ!
وَرُدُّوا الرِّزَايَا مِنْ غُرُورٍ وَمِنْ وَهْمِ
وَهِيَّاتِ أَنْ يَبْقَى بِنَاءٌ عَلَى ظَلَمِ
وَكُلُّ فَسَادٍ أَوْ ضَلَالٍ إِلَى هَدَمِ
تُقَدِّسُهُ لَا تَزِدُ بِالْخِزْيِ وَالْغُرَمِ
وَيَا ذُلَّ مَنْ يَرْضَى عَنِ الذِّلِّ وَالْهَمِّ!
فَلَا بُدَّ مِنْ فَوْزِ الْمُجَاهِدِ فِي الْيَوْمِ!

قَلِيلٌ عَلَى الْأَحْزَانِ مَا انْتَهَدَ مِنْ جِسْمِي
بَكَيتُ وَمَا أَبْكِي عَلَى سَالِفِ الْهَوَى
يَصِيحُونَ مِنْ خَوْفٍ عَلَى سِرِّ عَيْشِهِمْ
جُسُومٌ عَلَى الْإِفْسَادِ تُفْنِي رَجَاءَنَا
جُسُومٌ بِرَغَمِ الزَّجْرِ أُسْرَى لِعُصْبَةِ
وَمَنْ كَانَ لَا يُرْضِيهِ إِسْعَادُ قَوْمِهِ
تُرِيدُونَ إِعْزَازَ النُّفُوسِ الَّتِي هَوَتْ
تُرِيدُونَ تَسْخِيرَ الْعُقُولِ الَّتِي سَمَتْ
أَفِيقُوا فَإِنَّا أُمَّةُ الدَّهْرِ لَمْ نَزَلْ
أَفِيقُوا فَلَسْنَا الْيَوْمَ نَغْضِي عَلَى الْقَذَى
فَهِيَّاتِ تَسْتَعْلِي عَلَى الْحَقِّ قُوَّةُ
وَأَقْسِمُ أَنَّ الشَّعْبَ لَا بُدَّ يَعْثَلِي
وَلَوْ شَاءَ رَبُّ الْمُلْكِ إِسْقَاطَ أُمَّةٍ
فَيَا مَجْدَ مَنْ يَسْعَى بِنَفْسٍ أَبِيَّةٍ
إِذَا صَحَّ أَنَّ الْأَمْسَ وَلَّى بِخَيْبَةٍ

(٢٠) إلى الصديق الشاعر الرقيق عبد الحليم حلمي المصري

عَذَّبْتَ خِلَا بِحُكْمِ الْحُبِّ لَمْ يَنْمِ
فَرِقَةُ الشَّعْرِ تُخَيِّ مَيِّتَ الْأَلَمِ؟
وَمَا عَرَفْتُ شِفَاءَ الصَّبِّ فِي الْقَلَمِ
وَيَبْسُمُ الزَّهْرِ فِي سُكْرِ وَفِي حُلْمِ
يَحْيَا الْجَمَالُ بِهَا — نَاجٍ مِنَ الْعَدَمِ
وَعَدُ الْحَبِيبِ، وَأُذْنِي لَفُظُهُ لِقَمِي!

يَا نَاشِرَ السَّحَرِ فِي يَوْمِ بَكَيتُ بِهِ
مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ أَمْهَلْتَنَا زَمَنًا
مِنَ الْبَيَانِ شِفَاءَ النَّفْسِ سَالِيَةً
يَهْفُو الْجَمَالُ لِشَعْرِ قُلْتَ أَعَذَّبَهُ
وَرَبِّ قَلْبٍ — لِمَعْنَى رُوحِهِ فَتَنُ
أَحْنُو عَلَيْهِ وَأَتْلُوهُ كَأَنَّ بِهِ

فَمَا عَبَسْتُ قَلِيلًا فِي بَدَايَتِهِ إِلَّا طَرَبْتُ وَوَلَّى بَعْدَهَا نَدَمِي
وَأَقْدَرُ النَّاسِ يُبْكِيهِمْ وَيُفْرِحُهُمْ مَنْ رُوحِهِ الْحَيِّ فِي شَعْرِ وَفِي نَعَمِ

(٢١) المعنى الأقدس

حَبِيبَتِي! أَنْتِ لِي مَعْنَى أَبْجَلُّهُ فَوْقَ الْمَعَانِي الَّتِي تُحَكِّي بِتَغْيِيرِي
مَعْنَى تَقْدَسَ فِي طَهْرٍ وَفِي أَلْقَى كَالنُّورِ، لَكِنْ تَسَامَى عَنِ سِنَى النُّورِ
مَعْنَى أَظَلُّ سِنِينَ الْعُمُرِ أَنْشُدُهُ وَلَسْتُ أَعْرِفُ مِنْهُ غَيْرَ تَقْصِيرِي
وَكُلُّ مَغْزَاهُ أَنْ أَلْقَاكَ فِي شَغْفِي كِلَاهُمَا فِي مَدَاهُ غَيْرُ مَحْصُورِ!

* * *

رَضِيتُ هَذَا الصَّبَا قَرَبَانَ آوَنَةٍ يُجِيبُ فِكْرُكَ فِيهَا كُلَّ تَفْكِيرِي
مَا دُمْتُ نَائِيَةً عَنِّي فَفِي طَرَبِي هُمْ، وَفِي مَرَجِي سَتَى الْأَعَاصِيرِ!

(٢٢) بحر الأمانى

حَمَدْتُ مِنَ الصَّبَا بَحْرَ الْأَمَانِي فَفِيهِ سَفِينَتِي وَبِهِ أَمَانِي
وَلَوْلَاهُ ارْتَطَمْتُ بِكُلِّ صَخْرٍ فَكَمْ فِي الْعَيْشِ مِنْ نُوبِ الزَّمَانِ
نَشَأْتُ عَلَى الدُّمُوعِ غِذَاءَ رُوحِي فَدَانَ إِلَيَّ بَوَاعِثُهَا كِيَانِي
فَصِرْتُ إِذَا ابْتَسَمْتُ رَأَيْتُ دَمْعِي هُوَ الْبَسَمَاتُ فِي صُورِ الْمَعَانِي

* * *

أَزِينُبُ! إِنْ حَيَّيْتُ فَمَا حَيَاتِي سَوَاكَ، وَمَا عَدَاهَا الْآنَ فَاْنِي
تُرَى هَلْ بَعْضُ أَشْوَاقِي يَرْجِي لَدَيْكَ، أَمْ الطُّفُولَةُ لَا تَعَانِي؟!
كِلَانَا فِي الْهُوَى طِفْلٌ، وَلَكِنْ أَنَا الطُّفْلُ الْغَبِيْنُ، أَنَا الْمَعَانِي
وَيَا بَحْرَ الْأَمَانِي أَنْتَ عَوْنِي وَلَوْ غَرَقَ الْهُوَى بَيْنَ الْأَمَانِي!

(٢٣) فُوَادِي

تَشَجَّعْ فِي الْمَصَائِبِ يَا فُوَادِي
 أَلَسْتُ كَجَوْهَرٍ فِي طَيِّ جِسْمِي
 إِذَا الْأَحْدَاثُ عَصَّتْ فِيكَ فَاكْسُرْ
 وَلَا تَكْ فِي الْأَسَى لَحْمًا وَرَخْوًا
 فُوَادِي مَا عَدَدْتُكَ بَعْضَ جِسْمِي
 وَلَكِنْ نَفْحَةً طَافَتْ وَوَافَتْ
 فَفِيكَ مِنَ النُّجُومِ شَوَاطِئُ نَارٍ
 تَلُوذُ بِكَ الْحَيَاةَ وَأَنْتَ مِنْهَا
 فَصَاحِبُهَا مُصَاحَبَةُ الْمُفْقَدِي
 وَلَا تَجْزَعْ عَلَى دُنْيَا تُسَاوِي
 فَفِيمَا تَشْتَكِيهِ نَعِيمٌ يَأْسُ
 وَكُنْ بِصَلَابَةِ الْحَجَرِ الْكَرِيمِ
 خَبِيءٌ لَا يُعْرِفُ لِلْيَتِيمِ؟
 نُيُوبًا لَنْ تَنَالَ مِنَ الْعَظِيمِ
 فَتَدْمَى بِالْكُلُومِ وَبِالْكُلُومِ
 فَمَا أَصْلُ الْقُلُوبِ مِنَ الْجُسُومِ
 عَلَى خَفَقِ الشَّعَاعِ مِنَ النُّجُومِ
 وَفِيكَ تَدْفُقُ النُّورِ الْعَمِيمِ
 بِمَنْزِلَةِ الْيَتِيمِ مِنَ الْيَتِيمِ
 وَلَا زِمَهَا مُلَازِمَةَ الْحَكِيمِ
 نَفُوسُ الْبُهَمِ بِالْحَرِّ الصَّمِيمِ
 وَبَعْضُ الْيَأْسِ مِنْ صُورِ النِّعَمِ!

(٢٤) أول الشهداء

لَا تَدْبُؤُوا هَذَا الشَّهيدَ فَإِنَّهُ
 نَهَبَ الضَّحِيَّةَ لِلْحَيَاةِ بِشَعْبِهِ
 لَتَرَاثُ أَجْيَالٍ وَفَخْرُ قُرُونٍ
 مُتَنَزِّهًا عَنْ مُشْبِهِ وَقَرِينِ!

(٢٥) إِلَى صَدِيقِي الشَّاعِرِ الْمَجِيدِ عَلِيِّ الْغَايَاتِي^٧

رَدَدْتُ شِعْرَكَ مُطَرَّبًا وَعَلِيلًا
 وَلَكُمْ أُرْدُ مِنَ الْجَمَالِ قَتِيلًا

^٧ أرسلت إليه لمناسبة ظهور ديوانه (وطنيتي)، وقد صودر فيما بعد.

صَحَّ الشُّعُورُ بِهِ فَشَاقَ تَهَافُتِي
قَبْلَتْهُ وَوَعَيْتُهُ فَوَجَدْتُهُ
وَإِذَا الْمُهَيْبُ تَرَقَّرَقَتْ آيَاتُهُ
قَلَمٌ إِذَا أَجْرَى الْوَفَاءَ دُمُوعُهُ
أَنَا مِنْ مَعَانِ نَضْرَةٍ مُتَمَائِلٌ
وَإِذَا الْبَيَانُ سَمَتْ بِهِ حَسَنَاتُهُ
فَارْبَأُ بِشُعْرِكَ أَنْ يَذَالَ، وَلَا تَقُلْ
إِنَّ الْيَرَاعَ وَإِنْ تَدَفَّقَ سِحْرُهُ
فَاذْكُرْ لَنَا قِيمَ الرَّجَالِ وَقُلْ لَنَا
حَسْبُ الْعَظِيمِ جَلَالَةٌ وَسَعَادَةٌ
وَحَلَا الْأَنْيُنَ بِهِ فَكَانَ قَلِيلًا
عَذْبًا بِأَمَالِ الْأَبْيِّ كَفِيلًا
وَجَدَ النَّدَاءَ إِلَى الْقُلُوبِ سَبِيلًا
أَجْرَى الْبَيَانَ مُهَذَّبًا وَصَقِيلًا
جَذَلًا، وَأَعَشَقُ ذَلِكَ التَّمَثِيلًا
طُبِعَ الْجَلَالُ بِهِ فَعَاشَ جَلِيلًا
إِلَّا لَتَنْظُمَ لِلْهُدَى إِكْلِيلًا
يَبْدُو بِأَيْدِي الْعَابِثِينَ ضَبِيلًا
حُرَّ الْمَقَالِ وَأَنْتَ تَرْضِي (النِّيلَا)
أَنْ لَا يَرُومَ عَنِ الصَّوَابِ بَدِيلًا

(٢٦) أَوْهَامٌ ...

غَرَامُكَ لَا عَذْلٌ عَلَيْهِ وَلَا رَدُّ
بَيَانُكَ غَلَابٌ، وَعُذْرُكَ مُفْجِمٌ
يَبِيْتُ عَلِيلًا خَافَتْ النَّبْضُ مُتَعَبًا
إِلَى الْعَيْنِ مَا يُحْيِيكَ مِنْ خَطَرَةٍ حَلَّتْ
وَلَوْلَا اللَّقَا مَا كُنْتُ جَذْلَانٍ عَابِسًا
حَيَاتُكَ لُغَزٌ، وَالْهُوَى كُلُّهُ جَوَى
فَيَا لَشَبَابٍ فِيكَ لَمْ تُبْقِهِ النَّوَى
تَرَكْتَ لِحُكْمِ الْحُسْنِ نَفْسًا عَزِيزَةً
وَمَهُمَا يَكُنْ مِنْ دَفْعِكَ السُّقَمَ وَالْأَسَى
وَرُبَّ صَفَاءٍ عَزَّ فِي مَذْهَبِي عَنَّا
نَعِيمُ الْفَتَى فِيمَا يَرَى الْأُنْسَ حَوْلَهُ
فَمَا لِلْسَّنَى حَدٌّ، وَمَا لِلْهُوَى حَدٌّ
وَلَحْظُكَ بَسَامٌ، وَقَلْبُكَ مِنْقَدُّ
يَيْنٌ، فَلَوْ أَصْغَى الْمُعَرِّدُ لَمْ يَشُدُّ
وَلِلْقَلْبِ دَاءٌ فِيكَ يَسْرِي وَيَشْتَدُّ
وَلَوْلَا الْجَفَا مَا كُنْتُ تَبْكِي وَتَحْنَدُّ
يَهُونُ، فَلَا غَمٌّ لَدَيْكَ وَلَا سَعْدُ
وَيَا لِحَالٍ مِنْكَ مَا فَاتَهُ الصَّدُّ
وَأَيُّ عَظِيمِ النَّفْسِ فِي شَرْعِهِ عَبْدُ
فَأَنْتَ عَلَى الْحَالَيْنِ تَفْنَى وَتَنْهَدُّ
وَرُبَّ شِقَاءٍ دَامَ فِي مَذْهَبِي رَعْدُ
وَهُمُ الْفَتَى فِيمَا يُخَالُ بِهِ الْوَجْدُ

(٢٧) حول تمثال مصطفى كامل

وَدَّعَ الْقَلْبَ بَيْنَ مُضْنَى وَخَالٍ
وَانْظُرِ الْعَقْلَ نَاطِقًا مِنْ جَمَادٍ
نَظَرَاتٍ عَلَى الْهَوَى بَاقِيَاتٍ
وَسَبَابُ مَا زَالَ تَصْوِيرُهُ الْحَقِّ
وَحَيَاةُ مَا زَالَ تَذَكُّارُهَا الْعَذِّ
يَا أَمِيرَ النُّفُوسِ هَلْ يَنْقُضِي الْعُمْدَ
نَحْنُ أَسْرَى عَلَى الْحَيَاةِ وَإِنْ جَلَّ

وَتَنَاسَ الْأَسَى وَهَمَّ اللَّيَالِي
وَارْقُبِ الْمَجْدَ صَادِقًا فِي خَيَالٍ
نَدْعُ الْحُرَّ فِي إِسَارِ الْمَعَالِي
قُ مَنَارِ الشُّعُورِ وَالْإِجْلَالِ
بُ مَقَرِّ الْحَيَاةِ وَالْأَمَالِ
رُ وَرَكْنِ الْهُدَى حَلِيفُ الزَّوَالِ؟!
تُ، وَأَنْتَ الْعَظِيمُ فِي كُلِّ حَالٍ

* * *

لَكَ غَالٍ مِنَ الْهَوَى غَيْرُ بَالٍ
صَمْتُكَ الْيَوْمَ مِثْلُ سَعِيكَ بِالْأَمِّ
ضَجَعَةُ الْمَوْتِ رَقْدَةُ السُّهْدِ وَالْوَجْدِ
دُمُ حَلِيفِ الْجَلَالِ فِي حُفْرَةِ الْقَبْرِ
وَادْكُرْ مَصْرَ وَارْفَعْ الصَّوْتِ وَالذِّكْرَ
تَخَطَّبُ الدَّهْرُ مِنْ مَبِيتِكَ فِي الْخَلِّ
وَتَهْزُ الْعُقُولُ لِلْحَزْمِ وَالْعَزِّ
وَقَفَةُ الشَّعْبِ عِنْدَ تِمْنَالِكَ الْيَوْمِ
أَه! كَمْ يُخْطِئُ الْمَضِلُّ فِي الْخَلِّ
إِنَّ مَجْدَ الْإِنْسَانِ فِي خِدْمَةِ الْإِنْسَانِ
خَافَقَاتُ لَكَ الْقُلُوبُ مِنَ الْحُبِّ
وَإِهْبَاتُ لَكَ الْحَيَاةُ عَلَى الْمَوْتِ
يَا كَبِيرَ الْيَقِينِ فِي قُوَّةِ الْحَقِّ
يَا كَثِيرَ الْإِبَاءِ فِي دَوْلَةِ الْبَغِّ
أُمَّةٌ تَحْفَلُ الزَّمَانِ بِمَاضِيهِ
وَتُحْيِي خَيَالَكَ اللَّيْلُ وَالْفَجْجُ

لِوَفَاءٍ عَلَى الْمَدَى غَيْرِ بَالٍ
سِ مَهِيْبُ لِمَخْلَدِ الْأَعْمَالِ
دِ لِقَلْبٍ عَلَى الرَّدَى غَيْرِ خَالٍ
رِ كَمَا كُنْتَ يَا حَلِيفَ الْجَلَالِ
رِ، كَمَا شِئْتُ يَا فَقِيدَ الْمَعَالِي
قِ وَتَأْتِي بِأَصْدَقِ الْأَمْتَالِ
مِ إِذَا أَخْفَقَتْ فُحُولُ الْمَقَالِ
مِ فَخَارُ لَهُ وَلِلتَّمْثَالِ
دِ وَكَمْ يُزْدَرَى بِحُسْنِ الْفِعَالِ
لَا فَرْقَ بَيْنَ دَانٍ وَعَالِ
سِ وَإِنْ لَمْ تَتَّبِ لِبَاسٍ وَمَالِ
تِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ قَرِينَ الزَّوَالِ
قِ وَيَا بَانِيَا قُلُوبِ الرَّجَالِ
سِ، وَيَا نَاسِفَا صُرُوحِ الضَّلَالِ
لِكَ وَتَعَزُّوْا إِلَيْكَ حُسْنَ الْمَالِ
رِ بِدَمْعٍ عَلَى الْهَوَى فِيكَ غَالٍ

* * *

أَيُّهَا الصَّانِعُ الْمُصَوِّرُ إِجْلَالَ أُمِّهِ
كَيْفَ وَقَفْتَ بَيْنَ عَهْدٍ وَمَجْدٍ—
صَنَعْتَ تَحْجُلُ الْبَيَانَ مِنَ الْحُسْ—
صُورَةٍ تَفْتَنُ الْمُفَكَّرَ مَبْهُو
ثِقُ بِشُكْرِ الْقُلُوبِ وَالْفَضْلِ وَالْجُـ
لَيْسَ بِدَعَا إِذَا حَلَفْتَ بِمَا أَتـ
وَلَكَ اسْمٌ يَصُونُهُ أَثَرُ الْعِلـ

— تَعْبُدُ الْهُدَى — فِي جَلَالِ
نِ وَمَا بَيْنَ وَصْفِ تِلْكَ الْخِلَالِ؟
نِ وَتُزْهِى عَنْ كُلِّ سِحْرِ حَلَالِ
تَا وَعَبْدًا لَصِمْتَ هَذَا الْجَمَالِ
ي، وَتِهَ فَأَخِرًا بِذَاكَ الْكَمَالِ
حَقَنْتَ صِدْقًا وَاخْتَلَتْ أَيَّ اخْتِيَالِ
سَمِ وَرَسَمَ بِنَضْرَةِ الْمَجْدِ حَالِي

(٢٨) أنفاس الخزامى

أَيُّ عِطْرِ فَاقَ أَنْفَاسَ الْخَزَامَى
بُنْتُ مِصْرَ فِي حَيَاءٍ زَهْرَةٍ
لَا يَرَاهَا غَيْرُ مَنْ كَانَتْ لَهُ
تَجَذَّبُ النَّحْلَ إِلَى أَكْوَابِهَا
تَتَوَارَى عَنْ عُيُونٍ لَا تَرَى
أَيُّهَا الْأَنْفَاسُ طِيبِي وَانْشُرِي
كَمْ وَقَفْنَا فِي مَجَالِي نَشْوَةٍ
لَمْ نَقْبَلْ غَيْرَ مَعْنَى حَائِمِ

فِي حَنَانٍ يَمْلَأُ الرُّوحَ سَلَامًا
وَحُشُوعًا وَسَلَامًا وَابْتِسَامًا
رُوحَهَا أَوْ مَنْ يُحَاكِيمُهَا غَرَامًا
وَهِيَ سَكْرَى تَرَشَّفُ الشَّهْدَ الْمَدَامَا
بِقَّةَ الْحُسْنِ وَأُخْرَى تَتَعَامَى
خَطَرَاتِ الْحُبِّ حَتَّى يَنْسَامَى
عِنْدَ مَرَاكِ فُتُونَا وَاحْتِسَامَا
حَوْلَنَا مِنْكَ عَشِيقَانَا دَوَامًا!

(٢٩) هجر الكريم (إلى أستاذي خليل مطران)

سَلِ النَّجْمَ كَمْ أَوْدَعْتَهُ الْحُبُّ مِنْ فَنِّي
وَرُبَّ جَمَادٍ صَادِقِ الذِّكْرِ مُفْصِحِ
فَإِنَّ لَهُ مِنْ صِحَّةِ الْقَوْلِ مَا يُغْنِي!
وَأَيُّ حَيَاةٍ لَا تَحُومُ عَلَى أَفْنِ؟

أَبْتُ لَهُ مَا يَشْتَكِي السُّهُدِ مِنْ جَفْنِي
لِعِلْمِي أَنَّ الْحُسْنَ أَطْوَعُ لِلْحُسْنِ
وَهَلْ كَانَ هَذَا مَا يُخَفِّفُ مِنْ حُرْنِي؟
وَلَيْسَ بَيَانِي عَنْ سَنَّاكَ بِمُسْتَعْنِ
لِقَاءِ الْوَفَا بِالْمَجْدِ وَالْخُذْنِ بِالْخُذْنِ
وَأَسْلَمَنِي طَوْلُ التَّرَقُّبِ لِلْوَهْنِ
وَكَلَّفَتْهَا تَبْلِيغَ صِدْقِ الْهَوَى عَنِّي!

أَرَأَيْتَهُ فِي كُلِّ لَيْلٍ وَعِنْدَهَا
وَأَسْأَلُهُ تَبْلِيغَ عُتْبِي لِهَاجِرِي
وَأَحْسَبُهُ أَشْجَاكَ فِي وَصْفِ حَالَتِي
أَمِيرَ الْقَوَافِي! أَنْتَ فِي اللَّبِّ مَائِلٌ
تَوَحَّيْتُ دَارًا شِئْتُ أَنْ نَلْتَقِيَ بِهَا
فَلَمَّا رَأَيْتُ الْوَعْدَ آمَالَ حَالِمٍ
نَثَرْتُ بِهَا مِنْ أَدْمُعِي كُلَّ دَرَّةٍ

(٣٠) عالمٌ وعالمٌ

أرسل الأستاذ الجليل حامل لواء النهضة الأدبية خليل مطران إلى صاحب هذا الديوان
قصيدة ودية رائعة مطلعها:

يَا ابْنَ أَخِي بَشَّرْتَنِي مَرَّةً
مَا دُمْتُ فِي خَيْرٍ وَفِي صِحَّةٍ
بِمُلْتَقَى السَّبَبِ وَلَمْ تَحْضُرْ
فَأَنْسَ الَّذِي تَنْسَاهُ أَوْ فَادُكُرْ

وَمِنْهَا:

تَحْكِي سَهِيلًا قَطْرَةً مِنْ دَمٍ
كَلَاهُمَا فِي نَوْعِهِ عَالَمٌ
وَتَكْفُو الدَّرَّةُ لِلْمُشْتَرِي
أَدَقُّهُ يُدْهِشُ كَالْأَكْبَرِ!

فأرسل إليه صاحب الديوان الرد الآتي:

يَا سَيِّدِي الْعَمَّ وَيَا مَنْ لَهُ
مَا كُنْتُ إِلَّا بَضْعَةً مِنْ هُدًى
هَيْهَاتَ أَنْ أَنْسَى مَوَاعِيدَنَا
أَدِينُ بِالْحُلُوِّ وَبِالْمُزْهَرِ
أَهْدَيْتَهُ أَنْتَ إِلَى مَعْشَرِي
لَكِنْ تَخَالَفْنَا فَلَمْ نَحْضُرِ! ^٨

^٨ يريد أخطأ كلانا في تعيين الموعد فلم نتلاقَ.

وَكَيْفَ أَنْسَاهَا وَأَنْتَ الَّذِي لَوْلَاهُ لَمْ أَزْهَرْ وَلَمْ أَتَمِرْ؟
مَقَالَهُ الصَّدْقِ، وَحَسْبِي غَنَى مَقَالَهُ الصَّدْقِ وَحُبِّي السَّرِي

* * *

يَا شَاعِرَ الْعَصْرِ وَيَا مُرْشِدِي وَرَافِعَ الْخُلُقِ وَيَا مُظْهِرِي
نَصَائِحِ الْوُدِّ الَّتِي سَطَّرْتَ فِي شِعْرِكَ الْحَيِّ جَنَى أَسْطُرِي
تَفَتَّرُ بِالْإِلْهَامِ وَضَاءَةً كَعَهْدِكَ الدَّائِمِ بِالْمُنْبَهْرِ
حَبَّبْتَ لِي الطَّبَّ كَأَنِّي بِهِ كَفَرْتُ بِالدُّنْيَا وَلَمْ أَكْفُرْ
أَسْتَصْغِرُ الْعَالَمَ مِنْ عِزَّةٍ بِالْعِلْمِ وَالْجَهْلِ وَبِالْمُنْكَرِ!
كَأَنَّمَا الْعُرْفُ وَإِنْكَارُهُ سَيَانٌ فِي الرُّوحِ وَفِي الْجَوْهَرِ
مَا زِلْتُ بِالْبَابِ وَلَكِنَّنِي كَالْهَارِبِ التَّائِهَةِ فِي عَسْكَرِ!
وَالْمَجْهَرُ^٩ الْكَاشِفُ لَا يَنْتَنِي يُشَوِّقُنِي وَهَمًّا وَلَا يَمْتَرِي
أَسْتَنْبِطُ الْأَحْيَاءَ فِي نُورِهِ كَأَنَّنِي مُسْتَنْبِطُ غُنْصُرِي!
كَأَنَّنِي الْخَلْقَ فِي دِقَّةٍ وَالْعَالِمَ الْأَكْبَرَ فِي مُجْهَرِي^{١٠}
كَأَنَّمَا الْإِنْسَانُ فِي قَبْضَتِي مُسْتَحْدَثًا حَيًّا لَدَى مَخْبَرِي^{١١}
أَوْ أَنَّمَا تَشْرِيحُهُ نَفْحَةٌ نُحْيِيهِ بِالْعِلْمِ وَإِنْ يُقْبَرِ!

* * *

مَا أَعْجَبَ الطَّبَّ وَإِلْهَامَهُ لِلشَّاعِرِ النَّاثِرِ وَالْمُجْتَرِي
أَقْصَى الْخَيَالَاتِ لِأَشْعَارِهِ لَا شَيْءَ جَنْبَ الْعِلْمِ فِي الْمَخْبَرِ!

^٩ مرادف الميكروسكوب.

^{١٠} مجهري: ميكروسكوبي.

^{١١} المخبر: المعمل العلمي الاختباري.

(٣١) لوعة الخريف

إلى أستاذي خليل مطران

شِعْري لَدَى الْعَمِّ الْخَلِيدِ
صَفِّ لَوْعَتِي حِينَ الْخَرِيبِ
حِينَ الصَّبَا رَهْنُ الذُّبُو
مُتَقَطِّعًا مُتَوَجِّعًا
حُلْمٌ يَرَوِيهِ الصَّبَا
لهْفِي عَلَى الْحُلْمِ الْجَمِيدِ
وَعَلَى الْهُوَى بَيْنَ الْمُعَا
وَعَلَى الصَّبَا يَذْوِي عَقَا
لِ صِفِ الْهُوَى فِي مَدْمَعِي
فَ يَتَنُّ فِي أَلَمٍ مَعِي
لِ وَحِينَ قَلْبِي لَا يَعِي
فِي حُلْمِهِ الْمُتَقَطِّعِ
فَيَجْفُ عِنْدَ الْمَنْبَعِ
لِ مُضَيِّعًا وَمُضَيِّعِي!
نِدِ وَالْمُكَابِرِ وَالِدَّعِي!
بَا لِلْغَرَامِ الْمُبْدِعِ!

شِعْري لَدَى الْعَمِّ الْخَلِيدِ
عَبَّرَ لَهُ عَنْ كُلِّ آ
وَعْدِ الطيُوفِ مِنَ الْمَحْـ
عُدَّ بَيْنَ آمَالِ الرَّبِيبِ
فَهُوَ الْكَفِيلُ بِحُبِّهِ
أَدْبِي يَدِينُ إِلَيْـ
وَقَوَامُ تَفْكِيرِي الْجَدِيدِ
وَلَدَيْهِ أَغْتَنِمُ الرَّبِيبِ
يَطْوِي الْفُصُولَ بِسُخْرِهِ
وَإِذَا الرَّبِيبُ أَضْمُهُ
وَإِذَا الْحَبِيبُ كَأَنَّهُ
سَخِرَ مِنَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ
يُخَيِّ الْمَوَاتَ مِنَ الْقُلُوبِ
لِ عَزَاءِ قَلْبِي الْمَوْجِعِ
لَأَمِي وَوَجْدِي وَأَسْمَعِ
بَةِ هَامِسًا فِي مَسْمَعِي
عِ مِنَ الْحَنَانِ الْمُمْرِعِ
طَبًّا لِحُرْقَةِ أَضْلُعِي
هَ بَلْ قَلْبِي وَغَايَةُ مَطْمَعِي
دِ وَوُثْبَتِي وَتَدْفُوعِي
عِ بَوْحَشَتِي وَتَفْجُوعِي
فَإِذَا الْخَرِيفُ مُودَّعِي
فِي نَشْوَةِ الْمُسْتَمْتِعِ
مَا غَابَ أَوْ هُوَ مُبْدِعِي
مِ بِقَنِّهِ الْمُتَرْفَعِ
بِ بِلَدَةِ الْمُتَبَرِّعِ

شَتَّانَ بَيْنَ هَوَى يَجُودُ دُوبَيْنَ حُبِّ يَدَّعِي
شَتَّانَ بَيْنَ هَوَى بِهِ مَجْدِي وَآخِرَ مَصْرَعِي!

رد أستاذي مطران

أَزَكَى تَحِيَّاتِ الْفُؤَا دِإِلَى الزَّكِيِّ الْأَزْوَعِ
أَهْدَى إِلَيَّ قَصِيدَةً كَخَرِيدَةٍ لَمْ تُفْرَعِ
عَمَرْتُ مَكَانَ الْأُنْسِ عِنْدِي مِنْ فُؤَادٍ بَلَقِعِ
حَسَنَاءَ بَارِعَةِ الْمَعَا نِي فِي نِظَامٍ أَبْرَعَ
تَجَلَّى فَتَحَلَّى أَوْ تَغَيَّرَ بْ فَحَلَّيْهَا فِي الْمَسْمَعِ
مَنْ لِي بِمُنْصَرَمِ الشَّبَا بَ وَفِكْرِي الْمُتَوَزَّعِ
فَأَجِيدُ فِي رَدِّ الثَّنَا عِ عَلَى الْأَخِ الْمُتَبَرِّعِ
قَصَّرْتُ فِي شَأْوِ الْبَلَا غَةَ عَنْ تَمَادِي مَطْمَعِي
أَهْلًا بِحَامِلَةِ الْكِتَا بَ أَمِينَةَ الْمُسْتَوْدَعِ
أَهْلًا بِنَاقِلَةِ الْبَيْدِ عِ مِنْ الطَّرَازِ الْأَبْدَعِ
أَهْلًا بِصَادِحَةِ شَجْتِ قَلْبِي وَأَجَرْتُ مَدْمَعِي
بَثْتُ حِكَايَةَ وَجْدِهِ بِأَنِينِهَا الْمُتَقَطِّعِ
وَشَدْتُ عَلَى تَوَقُّعِ سِرِّ بَ مِنْ حَمَامٍ سَجَّعِ
نَعْمُ الْمَلَائِكِ بَيْنَ مَبْدُودِ عِ وَبَيْنَ مَرْجَعِ
أَحْسَنْتَ تَأْدِيَةَ الْبَلَا غِ عَنِ الصَّفِيِّ الْأَلْمَعِ
كَوَفَائِهِ لِيَكُنْ وَفَا عِ الْخُذْنِ غَيْرَ مُصْنَعِ
وَكَوَّدَهُ فَلْيُشْرَعَ الْـ هُودَ النَّقِيِّ الْمَشْرَعِ
وَكَعَزَمِهِ فِي الْمَجْدِ فَلَا يَكُ عَزْمُ كُلِّ سَمِيدِ
لَا خُلُقَ أَنْزَعُ لِلْعُلَى بِجَمَالِ هَذَا الْمُنْرَعِ

(٣٢) المتصرف

(كُنِبْتُ عَلَى صُورَةِ أَهْدَاهَا الشَّاعِرُ إِلَى أَحَدٍ أَوْفِيَاءِهِ)

الْقَلْبُ لَا يَرْجُو دُنُوَّ مَالِهِ مَا دُمْتَ أَنْتَ مَصْرُفًا فِي حَالِهِ
كُنْ كَيْفَ شِئْتَ مَقْدَرًا لِحَالِهِ وَنَعِيمَ مُهْجَتِهِ وَحَظَّ «حَيَالِهِ»
لَوْ رُمْتَ أَسْعَدْتَ الْأَسِيرَ بِأَسْرِهِ أَوْ شِئْتَ أَذَلَّتْ الْعَزِيزَ بِآلِهِ

(٣٣) الاستشفاء

دَعِ الرَّجِيلَ لِدَارِ الْحُبِّ وَالْغَيْدِ وَاصْبِرْ عَلَى الْقَيْظِ فِي قَاسٍ مِنَ الْبِيدِ
فَمَدَمْعُ الْعَيْنِ مِنْ حُسْنِ تَقَرُّ بِهِ وَلَذَّةُ السَّمْعِ فِي أَسْرِ الْأَغَارِيدِ
يَحْلُو الْهَجِيرُ إِذَا صَحَّ الْفَوَادُ بِهِ عَنِ النَّسِيمِ بِتَعْذِيبٍ وَتَسْهِيدِ

(٣٤) على قبر الشهيد

وَدِدْتُكَ مَشْنُوقًا وَزُرْتُكَ مَقْبَرًا وَلَسْتُ عَلَى الْحَالَيْنِ أَبْخُسُ مِنْ قَدْرِي
وَقَفْتُ عَلَيْكَ الْيَوْمَ وَقْفَةً عَابِدٍ يَحُجُّ لَآيِ اللَّهِ يَا صَاحِبَ الْقَبْرِ
وَطَاطَأْتُ رَأْسًا لَمْ تَشَأْ خَفْضَةً لَهُ يَخْرُ لَدَى ذِكْرِي مَمَاتِكَ لَوْ تَدْرِي
إِذَا مِتُّ مَحْرُومًا مَدَى النُّطْقِ بِالْهُدَى فَيَا حَسْرَةَ الْفَانِي وَأَهَا عَلَى عُمْرِي
إِذَا مَسَّنِي مِنْ خَشْيَةِ الظُّلَمِ هِزَّةٌ فَإِنِّي عَلَى الْإِحْجَامِ أَقْرَبُ لِلْكَفْرِ!

(٣٥) وَطَنِي! وَطَنِي!

يَا ابْنَ الزَّمَنِ!	وَطَنِي! وَطَنِي!
أَوَلَمْ تَذَرِ	أَوَلَمْ تَذَرِ
بَاغٍ وَحَسُودٌ	هَيْهَاتَ يَسُودُ
وَالْخَلْفُ خَرَابٌ؟	فَيْمَ الْأَحْزَابِ
سِرُّ الْأَيَّامِ	حُبٌّ وَوَيْلٌ
تَرَكَ الْعَطْبَاءُ!	فَإِذَا ذَهَبَا

(٣٦) الطائر الجديد

(لمناسبة اجتياز بليريو خليج المانش بنجاح باهر وانتعاش حركة الطيران)

تَشْتَهِي أَنْ تَعْتَلِي هَذَا السَّيْمَا	أَيُّهَا الْإِنْسَانُ يَا ابْنَ الْأَرْضِ فِيمَا
أَصْلَحِ الْأَرْضَ تَجِدْ فِيهَا الْمَفَاتِنَ	لَكَ أَنْ تَسْمُوَ مَا شِئْتَ وَلَكِنْ
عَمِّرِ الْأَرْضَ وَلَا تَنْسَ الْمَسِيرَ	قَبْلَ أَنْ تَمْضِيَ لَهُوًا وَتَطِيرَ
أَنْتَ تُبْقِيهِ عَلَى غَيْرِ انْتِبَاهٍ	كَمْ خَرَابٍ شَامِلٍ فِيهَا نَرَاهُ
إِنَّ هَذَا وَحْدَهُ مَجْدٌ وَجَاهُ	عَمِّرِ الْأَرْضَ تَكُنْ فِيهَا آلَهُ
لَيْسَ فِي الْإِنْسَانِ عَبْدٌ وَمَلِكٌ	عَمِّرِ الْأَرْضَ وَعِشْ عَيْشَ أَخِيكَ
لَيْسَ لِلْأَحْلَامِ حَدٌّ وَأَنْتَ هَاءُ!	تُمْ طِرْ مَا شِئْتَ وَلْتَنْغِزْ الْجَوَاءُ

(٣٧) مسرح الليل

أَنْتَ تَبْدُو لِلشَّاعِرِ الْفَنَانِ؟	مَسْرَحَ اللَّيْلِ! أَيُّ مَلْهُى عَجِيبِ
مَنْ مَدِيدِ التَّنَاقُضِ الْفَتَانِ	كَمْ مَرَاءٍ خَلَقْتَهَا وَهِيَ شَتَّى
أَنْتَ مَجْلَى التَّهْتِكِ الْمُنْفَانِي	أَنْتَ مَلْقَى الْعُبَادِ وَالطُّهَرِ بَيْنَا

كُلُّ رَأٍ يَرَى الَّذِي يَشْتَهِيهِ
وَالنُّجُومُ الَّتِي تُطَلُّ عَلَيْنَا
بَيْنَ حُبِّ لَنَا كَأَمْ رَعَيْنَا
حَبَسَتْ دَمْعَهَا فَإِنْ بَذَلَتْهُ
شُهْبٌ تَسْتَحِيلُ مِنْ دَمْعِهَا الصَّا
فَكَأَنَّ الْأَجْوَاءَ لِلْأَرْضِ آذَتْ
وَيَذُوقُ الَّذِي يَرَى مِنْ مَعَانِي
فِي حَنَانٍ وَرَعَشَةٍ وَأَفْتَتَانٍ
وَالْتِيَاعِ كَخَفَقِ قَلْبِ الْجَبَانِ
فَشَابِبُ دَمْعِهَا النُّورَانِي
فِي إِلَى حُرْقَةٍ إِلَى صَوَانٍ
هَهَا فَحَاكَتْ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ!

(٣٨) نبع الصبابة

هَذِي الْأَنَامِلُ مَنْ أَبَاحَ لَوْعِهَا
لَوْلَاهُمَا مَا كُنْتُ أَفْهَمُ وَقَعَهَا
جُودِي بِأَنْعَامِ الْحَيَاةِ وَجَدِّدِي
لُغَةَ الْعَوَاطِفِ تُسْتَسَاعُ كَأَنَّهَا
أَصْغَيْتُ كَالطُّفْلِ الرَضِيعِ لِأُمِّهِ
وَنَعِمْتُ قُرْبِكَ فِي صَلَاةٍ حَرَّةٍ
قَلْبِي سَوَى عَيْنَيْكَ يَا حَسَنَائِي؟
سِحْرًا يُمِيتُ كَمَا يُعِيدُ رَجَائِي
مَا شِئْتُ إِلْهَامًا عَلَى إِلْهَامِ
نَبْعُ الصَّبَابَةِ فَاضَ بِالْأَنْعَامِ
وَرَشَفْتُ مِنْكَ بِمَسْمَعِي حَيَاتِي
لِلْفَنِّ لَمْ تُقَرَّنْ بِأَيِّ صَلَاةٍ!

(٣٩) لِمَ يَحْجُبُونَكَ؟

يَا «زَيْنَ» دُنْيَايَ الَّتِي مَا نَالَنِي
لِمَ يَحْجُبُونَكَ؟ هَلْ أَثْمْتُ بِكُلِّ مَا
هَلْ لِي سَوَى دِينِ الطَّهَارَةِ مِلَّةً
فَإِذَا حُجِبْتُ فَمَنْ أَخْصُ بِمُهْجَتِي؟
مِنْهَا سَوَى قَلْبِي عَلَى جِزْمَانِي؟
أَعْطَيْتُ حُسْنِكَ مِنْ جَمَالِ بَيَانِي
أَوْ لِي سَوَاكِ حِمَايَ أَوْ دِيَانِي؟
وَلِمَنْ أَعِيشُ؟ وَمَنْ لَهُ وَجْدَانِي؟

(٤٠) عبادات

مَا لِعَيْنِي كُلَّمَا أَلْقَاكِ بِالْفَرْحَةِ تَدْمَعُ؟
 أَهِيَ لِي الْفَرْحَةُ أَمْ خَشْيَةُ حُلْمٍ يَتَصَدَّعُ؟
 بِي رَجَاءٌ لَيْسَ يَخْبُو وَرَجَاءٌ لَيْسَ يَلْمَعُ
 وَأَنَا كَالْتَّائِيهِ الْعَانِي إِلَى الْأَوْهَامِ أَفْزَعُ
 هَاكَ قَلْبِي يَا حَيَاتِي! نَبَّيْهِ كَيْفَ يَصْنَعُ!
 هُوَ فِي الْقُرْبِ بَعِيدٌ عَنْكَ يَهُوُّ ثُمَّ يَجْزَعُ
 آهَ كَمْ يَجْنِي حَيَاتِي! آهَ مِنْ شَوْقٍ مُضَيَّعٍ!
 كَمْ تَلَاشَتْ قُبُلَاتِي فِي غَرَامٍ يَتَوَرَّعُ!
 قُبُلَاتِي فِي امْتِنَاعٍ هُوَ بَعْتُ لِي وَمَصْرَعُ
 وَحَيَاءٌ هُوَ تَسْلِيمِي بِعَقْلٍ لَيْسَ يَخْضَعُ
 وَعِبَادَاتُ تَنَاهَتْ وَأَبَتْ لِي كُلَّ مَطْمَعٍ!

(٤١) موسيقى الوجود

(نظمها صاحب الديوان متأثراً بقصيدة للشاعر جبرائيل سيتون)

حَدَّثُونِي عَنِ الْوُجُودِ الْمَغْنِيِّ:
 مَنْ جَمَادٍ وَمِنْ نَبَاتٍ وَأَحْيَا
 وَعَجِيبٌ إِذَا تَنَاءَيْتِ عَنِّي
 وَإِذَا مَا ظَفَرْتُ مِنْكَ بِأُنْسِي
 كُلُّ مَا فِيهِ صَادِحٌ يَتَغَنَّى
 ء، فَلَيْسَ الْغِنَاءُ مِنْهُنَّ يَفْنَى
 لَمْ أَجِدْ لِلْغِنَاءِ فِيهِنَّ مَعْنَى
 صَارَ هَذَا الْوُجُودُ لَحْنًا وَقَفْنَا!

(٤٢) بَاقَةُ أَنْعَامٍ

إِذَا اسْتَمَعْتُ إِلَيْكَ كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ
 كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ
 كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ
 كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ
 كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ
 كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ
 كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ
 كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ
 كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ
 كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ

(٤٣) الإكسير

هُوَ سَاعَةُ الدَّهْرِ يَا أَبَى مَنْحَاهَا
 قَدْ عُدْتُ يَا أَمْلِي إِلَيْكَ فَجَدِّدِي
 أَلْقَاكَ لِقِيَا خَاشِعٍ مُتَعَبِدٍ
 فَيَصِدُّنِي هَذَا الْخُشُوعُ كَأَنَّنِي
 ضَيَعْتُ أَحْلَامِي وَسَنِي هَكَذَا
 أَنَا لَا أَلُومُكَ يَا حَيَاتِي بَلْ أَرَى
 فَأَنَا الْأَمِينُ عَلَيْكَ غَيْرُ مُحَاسِبٍ
 فَإِذَا لَحِظْتُكَ كَالْغَرِيبِ فَإِنَّمَا
 هَذَا هُوَ الْأَسْبُوعُ مَرَّ وَهَذَا أَنَا
 مُتَنَاقِلًا فِي أَلْوَاهِمِ كَأَنَّ رَحِيقَهُ

إِلَّا بِتَوْقِيَّتِ لَهُ وَقُيُودِ
 عُمْرِي بِنَفْحَةِ رُوحِكَ الْمَعْبُودِ
 وَالْقَلْبُ يَخْفُقُ لِلْعَنَاقِ سَوُولًا
 أَجِدُ الْعِبَادَةَ أَنْ أَعِيشَ خَجُولًا
 فِي الشُّوقِ وَالتَّغْذِيبِ وَالْحِرْمَانِ
 حَظِّي كَحَظِّ الْحَارِسِ الْبُسْتَانِي
 إِلَّا مُحَاسَبَةَ الضَّمِيرِ الْقَاسِي
 أَنَا وَحْدِي الْقُرْبَانُ دُونَ النَّاسِ
 قَدْ عُدْتُ فَرَحَانًا إِلَى الْإِكْسِيرِ
 مِنْ صَمْتِنَا الْمُغْنِي عَنِ التَّغْيِيرِ!

(٤٤) الخالق الفنان

تَبَارَكَ رَبِّي مُبْدِعًا وَمُصَوِّرًا
يَرَاهَا الْفَتَى لَكِنْ كَأَنَّ الَّذِي يَرَى
وَمَا عَظَّمَ الْخَلْقَ إِلَّا احْتِجَابُهُ
وَمَا شَاقَنِي فِي الْكُونِ إِلَّا خَفِيَّتُهُ
يَعَافُ نَهْيَ الْفَنَانِ إِعْلَانُ ذَاتِهِ
كَذَلِكَ خَلَقَ الْوُجُودَ فَإِنَّهُ
فَهَذَا هُوَ الْفَنُّ الْإِلَهِيُّ لِلَّذِي
وَهَذَا هُوَ الْمَجْلَى الْعَجِيبُ لِمُبْصِرٍ

لَقَدْ خَلَقَ الْآيَاتِ كَالسَّحْرِ لِلْوَرَى
خَيَالٌ وَخَلْفَ الْكُونِ كَوْنٌ تَسْتَرَا
فَسُبْحَانَهُ يَبْدُو وَيَخْفَى مَكْرَرًا
فَإِنَّ وَرَاءَ الْكُونِ عَقْلًا مُدَبَّرًا
وَيُغْلِنُ عَنْهُ الْفَنُّ أَضْعَافَ مَا يَرَى
تَحَجَّبَ وَاسْتَهْوَى بِهِ عَقْلَ مَنْ دَرَى
يَرَى الْفَنَّ وَالْفَنَانُ فِي النَّجْمِ وَالْتَرَى
يَرَى الْخَالِقَ الْفَنَانُ عَيْنًا وَمُضْمَرًا

وَكُونَتِ أَنْتِ الْحُبُّ لِي عَالَمًا كَمَا
تَحَجَّبَتِ كَالْخَلْقِ إِذْ بَاعَدَ الْوَرَى!

(٤٥) بنات الخريف

هَلُمِّي! هَلُمِّي! بَنَاتِ الْخَرِيفِ
وَطُوفِي وَطُوفِي بِهَذَا الْحَفِيفِ!
نَرَاكِ بِأَوْهَامِنَا جَائِلَةً
كَبَاحِثَةٍ عَنْ تَرَاثٍ فَقِيدِ
وَقَدْ حُرِمْتَ مِنْهُ فِي يَوْمِ عِيدِ
فَتَمَضِي بِلَهْفَتِهَا سَائِلَةً!

نَرَاكِ تَطُوفِينَ وَلَهْيَ شَرِيدَةٍ
تَهْزِينَ حَتَّى الْغُصُونِ الْوَحِيدَةِ
وَتَذَرِينَ حَتَّى الرِّيَّاحِ الَّتِي

تَظُنُّنَ فِيهَا خَفَايَا الْجَمَالِ
وَقَدْ حَجَبَتْهَا أَيْدِي اللَّيَالِ
فَهَلْ تَنْتَهِينِ إِلَى غَايَةٍ؟

(٤٦) الساعة

نَمْنَا جَمِيعًا وَأَنْتِ يَقْظَانَهُ
بَلْ كُلُّنَا فِيهِ رَوْحُ غَفْلَتِهِ
كَمْ دَقَّةٌ مِنْكَ جَدُّ مُنْذِرَةٍ
وَقَدْ غَفَلْنَا وَلَسْتَ غَفْلَانَهُ
كَفَيْلُ سَوْفٍ يَعَافُ إِنْسَانَهُ
فَمَا انْتَفَعْنَا وَدُمْتَ لَهْفَانَهُ!

(٤٧) الوسواس

هَلْ فِي الْهَوَاءِ مِنَ الْحَدِيثِ مُحَجَّبٌ
مَا لِي أَحْسُ بِهِاتِفٍ وَبِهِاتِفٍ
مُلَى الْقَضَاءِ بِهَا وَكَمْ فِي طَيِّهَا
فَكَأَنَّهَا كُلُّ الَّذِي ظَفَرَ الْوَرَى
إِلَّا عَنِ الْفَنَانِ بَيْنَ النَّاسِ؟
وَيَعْوَالِمِ شَتَّى مِنَ الْإِحْسَاسِ؟
صُورٌ مِنَ الْمَاضِي الْعَزِيزِ الْفَانِي
بِالْخُلْدِ بَيْنَ مَشَاعِرِ الْإِنْسَانِ!

(٤٨) الطائر الرقيب

رَقِيبٌ وَلَكِنْ يُغْنِي لَنَا
لَعَلَّ الرَّبِيعَ وَقَدْ فَاتَنَا
نُتَابِعُهُ فِي حُبُورِ الصَّبَا
فَيَا مَرْحَبًا نُمُّ يَا مَرْحَبًا
وَيَا طَائِرِي أَنْتِ يَا طَائِرِي
وَيُعْطِي الْحَدِيقَةَ مَعْنَى الْغِنَى
أَهَابَ بِهِ لِإِيرِيهِ لَنَا!
وَنُصْغِي إِلَى الشَّدْوِ مُسْتَعْذِبًا
بِهَذَا الرَّقِيبِ وَمَا حَبِيبًا!
بَسَمْتَ إِلَى رَوْحِي الشَّاعِرِ

وَأَصْغَيْتَ لِلشَّاعِرِ الطَّائِرِ
إِذَنْ لَعَرَفْتَ غَرَامِي الدَّفِينِ
وَحُبِّي الَّذِي مِثْلَ حَيِّ الْغُصُونِ
فَهَلَّا أَصْنَحَ إِلَى خَاطِرِي؟
وَمَا لَجَّ بِي مِنْ جَوَى أَوْ حَنِينٍ
تَفَرَّعَ، بَلْ مِثْلَ حَيِّ الْفُنُونِ!

(٤٩) وحي المطر

أَنَا ظَامِيٌّ وَالْكُلُّ حَوْلِي ظَامِيٌّ
هَذِي الْغُصُونُ تَنَاوَلَتْ مَا خَصَّهَا
تَتَسَاقَطُ الْقَطَرَاتُ مِنْ يَدِ زَهْرَةٍ
وَأَنَا الْوَحِيدُ فَأَيْنَ أَيْنَ حَبِيبَتِي
هَلَّا بَعَثْتَ إِلَى دَفِينِ شُعُورِهَا
فَلَعَلَّهَا تَأْتِي وَتَنْزُرُ عَطْفَهَا
فَتَقْطُرِي يَا سَحْبُ كَيْفَ حَنَنْتِ
وَلَبِثْتُ فِي ظَمْئِي لَوْحِيكَ أَنْتِ
لَيْدٍ، لِأُخْرَى، وَالْجَمِيعُ سَكَرَى
حَتَّى تَرُدَّ جَوَى وَتُطْفِئُ نَارًا؟
بِرِسَالَةِ الْحُبِّ الْوَفِيِّ الْبَاكِ
كَالْقَطْرِ فَوْقَ الزَّهْرِ وَالْأَشْوَاكِ!

(٥٠) القطة اليتيمة

جَلَسْتُ قُرْبِي كَأَنَّ قُرْبِي
وَكَمْ تَأَلَّمْتُ فِي حُنُوِي
فَقَدْتُ أُمًّا وَمَا فَقَدْنَا
كَأَنَّني ثَاكِلاً شَبَابِي
أَحْبَبْتُ فِي وَحْدَتِي عَزَاءً
قَدْ أَسْرَفَ الْحُسْنَ كِبْرِيَاءً
فَلْتَعْنَمِي أَنْتِ مِنْ حَنَانِي
فَالْحُبُّ جَانٍ وَأَيُّ جَانٍ
عَزَاءً إِحْسَاسِكِ الْيَتِيمِ
عَلَيْكَ فِي صَمْتِكَ الْأَلِيمِ
لَكِنَّ فِي عَزَلَتِي افْتِقَادًا!
وَسَائِدُ الصَّمْتِ مِنْ حَدَاثٍ
مُذْ لَمْ أَنْلُهُ مِنَ الْجَمَالِ
أَوْ بَرُّهُ يُشْبِهُ الْمَحَالِ
مَا شِئْتُ يَا طِفْلَةَ الْغَرَامِ
وَالْحُبُّ كَمْ يَتَمُّ الْأَنَامِ

دراسات أدبية

(١) شاعرية أبي شادي

هزت مشاهد الفجر من القدم عبقرية الشعراء، فتغنى جوت الشاعر الألماني بلون الفجر الأرجواني، وذكر أثره الجليل على شاعريته في رواية فوست، وأرسل الشاعر الإنجليزي كولريديج نشيدًا ناجى به مظاهر الطبيعة قبل طلوع الشمس في وادي شاموني. وأثر جلال الفجر في أبي شادي وهو في صباه، فوصف أنداء الفجر بأنها صيغت في حنان ورقة من دموع النجوم ومن سهر العاشق وأن عمرها لحظات نقضيها في ثغور الأزهار وفي ألق العشب وفوق الغصون والأشجار:

مِنْ دُمُوعِ النُّجُومِ، مِنْ سَهَرِ الْعَاشِ	سَقِ صِيغَتْ وَمِنْ رَجَاءِ الْحَيَاةِ
فِي حَنَانٍ وَرِقَّةٍ وَهِيَ لَا تَمُ	لِكَ مِنْ عُمْرِهَا سَوَى لِحَظَاتِ
فِي ثُغُورِ الْأَزْهَارِ، فِي أَلْقِ الْعُشْبِ	بِ، وَفَوْقَ الْغُصُونِ تَحْيَا وَتَفْنَى
وَهَبَتْ حُسْنَهَا الضَّحِيَّةَ لِلشَّمْسِ	سِ كَأَنَّ الْفَنَاءَ لِلشَّمْسِ أَغْنَى!

وليست هذه الأنداء إلا رمزًا لقلب شاعر تأثر بمشهد الفجر الشاعري فترقرقت من قلمه أنداء على زهرة الشعر في مملكته المقدسة، فإذا بديوان بكر وسمه الشاعر (أنداء الفجر)؛ ديوان تنفس الحب العفيف الصادق وهتف بمرائي الطبيعة الرائعة، ورسم خوالج النفس الحاملة الشاعرة وتأملات الزهد الخفية العميقة، وإذا بنا ننشق عطر الشاعرية فيه ونلمح وميض العبقرية يخطف بالبصر في داجٍ من الظلم.

وعجبُ أي عجب لنزوع هذا الشاعر في سن مبكرة إلى انتقاء عناوين شعرية لدواوينه وقصائده ومقطوعاته انتقاءً فائقاً يتمازج فيه العنصر الشعري بالعنصر الجمالي كما تتمازج أضواء القمر الجميلة بموجات النهر الساحية.

وها نحن نلمس العنصر الشعري في ديوان (أنداء الفجر) في مثل مقطوعته «وحي المطر» التي هتف بها الشاعر في أوائل الشتاء جامعاً فيها بين الطبيعة والحب في نفس واحد، وفي قصيدته «بنات الخريف» يناجي بها روح الخريف مناجاةً شعريةً قويةً، وقصيدة «موسيقى الوجود» يغني فيها بمشاهد الوجود من جماد ونبات. وهذا العنصر الشعري يغمر جميع دواوينه، ونذكر بخاصة ديوان (الينبوع) الذي وعى من القصائد الشاعرة «رعدة الحور» و«الأوراق الميتة» و«الورود الحمراء» و«مصر العازفة» و«الأشعة الصادرة» وغيرها، ونقصد بالعنصر الشعري تلك البيئة التي تنزع بالشاعر إلى المرائي والحوالج وتلف قلبه وحواسه في شبه غيبوبة، وتبتعث شعوره إلى أن يهيم في أودية خفية وذهنه إلى أن يجول في آفاق مجهولة! فأوراق العشب، وأنفاس الزهر، وصمت الكون، وأحزان القمر، وظلال السحب، وأنداء الفجر، وتوفز الطير ... كلها وأشباهاها من مواد الشاعرية، بينما القصر الجديد، والطيارة ذات الأزيز، والخيال الجارية في السباق، والسيارة الناهبة للأرض، والآلة الميكانيكية، والاختراع الحديث، وكل مظهر من مظاهر الحياة الصناعية، قد تكون جميلة أيما جمال، ولكنها لا تبض بشاعرية، ولا تتفتح عن خيال. وما عرف أبو شادي الجمال متجرّداً عن الشاعرية، ولا ترنم في ديوان من دواوينه بمظاهر الجمال البحتة. اسمع إليه يقول في قصيدته «حياتان»: حياة الطبيعة التي يجد فيها موضوعاته الشعرية، وحياته اليومية التي يتقزز منها، يبث حنينه للأولى وشجاء من الثانية ... يقول:

أُمِّي الطَّبِيعَةُ فِي نَجْوَاكِ إِسْعَادِي وَفِي ابْتِعَادِي أَعَانِي دَهْرِي الْعَادِي
وَفِي حِمَى إِخْوَتِي مِنْ كُلِّ طَائِرَةٍ وَكُلِّ نَبْتٍ نَبِيلٍ وَحِيكَ الْهَادِي

وهذا النزوع إلى المواطن الشعرية أكثر من الجمالية ملحوظ في الشعراء الحقيقيين أمثال كولريديج الذي ناجى «البلبل»، ووردزورث الذي هام بالطبيعة، وكيثس الذي أثر الشاعرية على الجمال؛ فتغنى بالزهر وهتف بالطير ولم يهتم بمراى أبدعته يد الإنسان. وفيكتور هيجو الذي لم يجارِه أحد في تنوع موضوعاته لم يهتم بالجمال المصنوع مثل ما اهتم بالمثلثات الشعرية. يقول الفيلسوف الشاب جيو Guyau في كتابه (فلسفة

الفن والجمال): إن فيكتور هيجو الذي أحاط بكل ضروب الشعر وتحذت في فنونها المتنوعة لم يتغنّ بكنيصة نوتردام دي باري، وكذلك شرب الشاعر الأمريكي الجريء ثورو من الطبيعة فعاش مع الحيوان والطير والزرع وأحب مواطن الشعارية لذاتها وابتعد عن الناس وعما أبدعته أيديهم من جمال!

وأبلغ العجب أن يند أبو شادي عن هذا النزوع الشعري في قصيدة واحدة من ديوانه هي «عالم وعالم»، فيحدثنا بعظمة وجمال «المجهر» و«المخبر» وآثارهما للعالم، ويحدثنا عن الطب وعجائبه، وهذه الأدوات العلمية الحديثة من المواطن التي ينبو عنها الشعر. يقول:

مَا أَعْجَبَ الطَّبَّ وَإِلْهَامَهُ لِلشَّاعِرِ النَّائِرِ وَالْمُجْتَرِي
أَقْصَى الْخَيَالَاتِ لِأَشْعَارِهِ لَا شَيْءَ جَنْبَ الْعِلْمِ فِي الْمُخْبِرِ!

بيد أنني لا أنكر على الشاعر أن يبرز من مثل هذه الأدوات معاني شعرية، ولكن لا يجعلها هي بالذات موضوع الشعر، كما فعل أبو شادي في قصيدته «الطب الحائر» التي لم يتحدث فيها عن الطب المجرد لا من قرب ولا من بُعد، ولكنه أبرز من ملابسات الطب فلسفة عميقة ذكية. يقول:

مَا كُلُّ بَاسٍ فِي الْجُسُومِ بِصِحَّةٍ أَوْ كُلُّ وَهْنٍ لِلْجُسُومِ بِدَاءٍ
وَالْعَيْشُ عَيْشٌ حَقَائِقُ وَدَقَائِقُ وَالْمَوْتُ مَوْتُ سَلَامَةٍ الْأَرَاءِ
نَفْسِي تَحَرَّكُهَا الْهُمُومُ إِذَا بَدَتْ مَكْنُونَةً فِي أَنْفُسِ الضُّعَفَاءِ

وقراءة متمعة في ديوان (أنداء الفجر) تكشف لنا عن روح شعرية مبكرة لشاعر حقيقي. وتتألف تلك الروح الشعرية من انفعال ينبض نبض القلب في الجسد، وعاطفة تسري سريان النسيم اللطيف في الأفق، وفكر يضيء كشعاع وردي في ليل بهيم! سرى الانفعال الشعري في قوته في هذا الديوان المبكر، ومن آيات ذلك قصائده «عبادات» و«موسيقى الوجود» و«بنات الخريف» وغيرها. اسمع إلى الشاعر يقول في قصيدة «عبادات»:

هَاكَ قَلْبِي يَا حَيَاتِي! نَبَّيْهِ كَيْفَ يَصْنَعُ!

هُوَ فِي الْقُرْبِ بَعِيدٌ عَنْكَ يَهْفُو ثُمَّ يَجْزَعُ
أَهْ كَمْ يَجْنِي حَيَاتِي! أَهْ مِنْ شَوْقٍ مُضِيعٍ!

ويقول الشاعر في قصيدة «بنات الخريف» يخاطب الريح في انفعال وثاب:

هَلُمِّي! هَلُمِّي! بَنَاتِ الْخَرِيفِ!
وَطُوفِي وَطُوفِي بِهَذَا الْخَفِيفِ!

وأبرز ما يبهر العين أن هذا الانفعال الشعري اقترن بعاطفة الحب غناء متنوعاً حتى ليكاد الديوان يتنفس حباً نابضاً، وأبلغ مثال لاقتران الانفعال بالعاطفة نجده في بعض أبيات جاءت في قصيدة «بحر الأمانى»:

أَزَيْنَبُ! إِنْ حَيَّيْتُ فَمَا حَيَاتِي سَوَاكِ، وَمَا عَدَاهَا الْآنَ فَانِي!
كَلَانَا فِي الْهُوَى طِفْلٌ، وَلَكِنْ أَنَا الطِّفْلُ الْغَيْبُ، أَنَا الْمُعَانِي!

وقوله وهو يصرخ صرخات العاطفة الطاهرة في مقطوعته «لِمَ يحجبونك؟»:

لِمَ يَحْجُبُونَكَ؟ هَلْ أَثْمْتُ بِكُلِّ مَا أُعْطِيتُ حُسْنِكَ مِنْ جَمَالِ بَيَانِي؟
هَلْ لِي سِوَى دَيْنِ الطَّهَارَةِ مِلَّةٌ أَوْ لِي سِوَاكِ حِمَايَ أَوْ دِيَانِي؟
فَإِذَا حُجِبْتَ فَمَنْ أَخْصُ بِمُهْجَتِي؟ وَلِمَنْ أَعِيشُ؟ وَمَنْ لَهُ وَجْدَانِي؟

وهذه العاطفة الطهورة مقرونة بهزة الانفعال النبيل هي من مميزات كل فن خالد. ونجد ذلك بارزاً في موسيقى بيتهوفن وفي شعر ملتون وفي قصائد تنيسون وكولريديج، فإذا عبر الشعر عن عاطفة حسية تعبيراً قوياً منفِعلاً فإن هذا أدخل في فنية الشعر لا في سموه الخلقى وخلوده. ومن نماذج الشعر الفني الذي لم يصل إلى المرتبة العالية مقطوعة لعباس محمود العقاد دعاها «حسرة متلفة» يمثل بها القبلية في انفعال قوي واشتهاء حسي، يقول:

يَا لَهُ مِنْ فَمٍ يَا لَهَا مِنْ شَفَهَ

يَا لِشَّهْدِ بِهَا كِدْتُ أَنْ أَرْشِفَهُ
يَا لِزَمْرِ بِهَا كِدْتُ أَنْ أَقْطِفَهُ
حُلُوَّةٌ وَيَحَهَا! غَضَّةٌ مُرْهَفَهُ
حَسْرَتِي بَعْدَهَا حَسْرَةُ مُتْلَفَهُ!

وقد سبقنا شعراء الغرب إلى إبراز قوة انفعالاتهم في بعض قصائدهم الخالدة، ومن هؤلاء الشعراء من دقَّ شعورهم وصفا حتى لتكاد تسمع نبض أعصابهم، ومن هؤلاء نذكر دي موسيه الحساس، وبودلير الهوائي، وشيلي العصبي، وكيثس النابض، وويليام بليك المنفعل، ولعل أغنية الأخير «الوردة المريضة» هي من الشعر العبقري، وقد وصف حالتها في انفعالٍ أليم فذكر أن دودةً مجهولة طارت إليها في الليل على أجنحة الزوبعة الزائرة ودخلت في مخدعها الفارح وبيدٍ خفية قتلتها! وقد استهلها بقوله:

O Rose! Thou art Sick!

وليس من شك في أن أبا شادي تغلب عليه نزعة التفكير والتأمل في شعره، وهذه أظهر ما تكون في دواوينه الجديدة لا في ديوانه البكر. وأخصُّ بالذكر من هذه الدواوين «أطياف الربيع» و«الينبوع» و«أشعة وظلال». وتبدو فيه هذه النزعة التفكيرية من صباه الباكر إلى يومه الحاضر، ومن دلائل تفكيره العميق وتأثره الفني قصيدته «أنفاس الخزامى» وقصيدته «الخالق الفنان». أما قصيدته «أنفاس الخزامى» فهي قصيدة فريدة في طرازها ولم يسبق شاعر من قبل — على ما أظن — إلى التفكير في هذه الزهرة والانتباه إلى وجودها بهذه المعاني، ولعل الذي نبهه إليها اشتغاله بالنحل من عهد الفتوة، وهو بهذا التفكير يحاكي شيلي الذي تنبه إلى صوت «القبرة» وبيرنز الذي تنبه إلى جمال زهرات اللؤلؤ في حقول اسكتلندة، ويحاكي كيثس وكولريдж في مناجاتهما «البلبل» وفيكتر هيجو في وصفه لزهرة المرغريت الوديعة. يقول أبو شادي في مطلع هذه القصيدة الفذة:

أَيُّ عَطْرِ فَاقَ أَنْفَاسَ الْخُزَامَى فِي حَنَانٍ يَمْلَأُ الرُّوحَ سَلَامًا
لَا يَرَاهَا غَيْرُ مَنْ كَانَتْ لَهُ رُوحَهَا أَوْ مَنْ يُحَاكِهَا غَرَامًا!

تَجْذِبُ النَّحْلَ إِلَى أَكْوَابِهَا وَهِيَ سَكْرَى تَرَشُّفُ الشَّهْدُ الْمُدَامَا!

وبودي لو يتم القارئ تلاوتها في الديوان، ليتبين ما فيها من رائع المعاني، وبودي أيضاً لو يرجع القارئ إلى قصيدة «الخالق الفنان» فإن فيها معاني تتطلب التفكير، وفيها شعور بالإيمان الصوفي، وبودي أيضاً لو يرجع القارئ إلى قصيدة «مسرح الليل» فإنه سوف يجد فيها أفكاراً عميقة وخيالات قوية جريئة.

وليس من شك في أن بثَّ الفكر الأصيل في الشعر من سمات كبار الشعراء البارزين، وذلك لأن أصالة الشعر لا تأتي إلا بالفكر الواسع، وأصالة التأمل لا تكون إلا بالذكاء لا بالحواس. يقول جيبو «المفكر الحقيقي هو الفنان الحقيقي»، فالشعر عند إمرسون كان أفكاراً، والشعر عند بروننج كان أفكاراً عميقة غامضة تحتاج إلى التروي وتقليب الرأي، والشعر عند كولريدج ينزع إلى التفكير.

استمع مثلاً إلى قصيدته «ذكريات الحب» التي تطفر بجمال الفكرة وهو يصرخ إلى حبيبته صرخات العاطفة فيصفها بأنها فكرة وأنها حلم يُذكر في حلم! يقول:

You stood before me like a thought,
A dream remembered in a dream.
But When these meek eyes first did seem
To tell me, love within you wrought,
O Greta, dear domestic stream.

ولقد خلع أبو شادي على الروح الشعرية رداءً منسجماً مع هذه الروح وملوناً بلونها دون أن يهتم بتجميل القافية ولا بتفخيمها، وجمع في هذا الديوان على الخصوص إلى صفاء الفكرة لطف الديباجة، وإلى براعة الخيال قوة الأداء، وهذا مما يرضي نزعات المحافظين والمجددين على السواء، وأبرز مثال على هذا الشعر الرصين قصيدته «عيش الحر» وهو خطاب حارٌّ ناريٌّ موجّه إلى مساوئ الاستعمار، وقد استهلها بقوله:

قَلِيلٌ عَلَى الْأَحْزَانِ مَا انْهَدَّ مِنْ جِسْمِي إِذَا كَانَ عَيْشُ الْحُرِّ أَشَبَّ بِالْإِثْمِ

وقصيدته «أنفاس الخزامى» وقد أتيناً عليها آنفاً، وقصيدته «الحب والأمل» ومقطوعته «الاستشفاء» التي تلمس فيها الديباجة البدوية الرصينة وقد استهلها بقوله:

دَعِ الرَّحِيلَ لِذَاكِ الْحُبِّ وَالْغَيْدِ وَاصْبِرْ عَلَى الْقَيْطِ فِي قَاسٍ مِنَ الْبِيدِ!

وقصيدته الرصينة «دمعة على قبر» تلك التي رثى فيها حسناء انتحرت يأساً لفقد عزيز لديها جاء فيها:

حَرَامٌ عَلَى قَلْبٍ عَرَفْنَا كَمَالَهُ يَرُدُّ رَجَاءَ الْحَيِّ لِلتَّرْبِ وَالْقَبْرِ
حَرَامٌ عَلَى شَمْسٍ أَضَاءَتْ بِطُحْرَهَا تَغِيبُ وَنَحْنُ الْيَوْمَ أَحْوَجُ لِلطُّهْرِ
حَرَامٌ عَلَى رَوْضٍ نُمُونًا بِمَائِهِ يَجِفُّ بِلَا ذَنْبٍ جَنِينًا وَلَا عُذْرِ

ويختتم هذا القصيد ببيت رائع المعنى بارع الأداء يتنفس الإخلاص الصادق، يقول:

جَمَالُكَ فِي نَفْسِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي وَشَخْصُكَ فِي عَيْنِي مُقِيمٌ وَفِي فِكْرِي!

وهذا الجميع بين صفاء الفكرة وجمال الديباجة وبين براعة الخيال وصدق العاطفة هو سمة كل شعر يشق لنفسه طريق البقاء ويحمل في ذاته عناصر الحياة، وقد امتاز شعر الشعراء النابهين بهذه السمة أمثال المتنبي، وأبي العلاء المعري، وشكسبير، وتينسون، والبارودي، وشوقي، وحافظ، في طائفة من قصائدهم.

وديان (أنداء الفجر) يضم كثيراً من أمثال هذه القصائد المقفاة الرصينة، ولكن يلاحظ إلى جانب هذه القصائد المقفاة نوع جديد من القافية المزدوجة أو شبه الطليقة تُظهر نزوعَ الشاعر إلى الطلاقة وإلى التحرر من عبودية القافية الواحدة، وهذه الطلاقة تعطي في كثير من الأحيان مسحة جميلة للتعبير الشعري. فإننا لنرى أن طائفة من قصائد هذا الديوان تعلن الثورة على القافية الواحدة كما يتجلى ذلك من قصيدة «الطائر الجديد» التي أتى في كل بيت منها بقافية مغايرة، وقصيدته «بنات الخريف» التي نوع القافية فيها. ورأينا أبا شادي يلجأ أيضاً إلى القافية المزدوجة في كثير من قصائده التي نذكر منها «وحي المطر» و«القطة اليتيمة» و«الوساوس» و«الطائر الرقيب» و«الإكسير» و«أنداء الفجر». وهذا الميل إلى الطلاقة والتحرر من عبودية القافية في سن باكراً يحمل بذور ثورته التي تجلت اليوم في شعره المرسل، ذاك الشعر الذي كان هو وعبد الرحمن

شكري من رواده، وتجلت أيضًا في شعره الحر الذي كان هو أول من أدخله في الشعر العربي، وهذا الميل إلى التحرر من القافية هو الذي أثار هاجسة المحافظين فزعموا أن هذا التحرر يُذهب الموسيقى ويضيع النغم. وهذا القول صادر عن جهل بأبسط المعارف الموسيقية: فإن آلات الأوركستر مثلًا لا يلزم أن تكون كل الأصوات المتصاعدة منها منسجمة النغمة بل قد تكون بعض الأصوات غير منسجمة ولا منغومة، والعبرة بوحدة الأصوات التي تكوّن النغم الموسيقي. فإذا فهمنا هذا الأساس أمكننا أن نفهم عدم ضرورة القافية الواحدة، ما دامت القافية المنوّعة تكوّن وحدةً موسيقيةً منسجمةً، ويكفي أن يخرج من كل بيت صوت موسيقي ولا يلزم أن يكون في كل بيت نغمة موسيقية.

فالموسيقى ولا شك توجد في القافية المنوّعة، ومن الملحوظ أن أعلام الشعر البارزين كانوا من أنصار الطلاقة في النظم ومن زعماء القافية المحرّرة. وقد لجأ الكثير منهم إلى القافية المنوّعة إذا آنسوا أن المعنى قد تفسده القافية الواحدة أو أحسوا أن القافية الواحدة تخمد العاطفة وتطفئ الانفعال. ونعرف من شعراء الغرب الذين لم يهتموا بالنغمة الموسيقية الشاعر الفرنسي الحساس «ألفرد دي موسيه» الذي لجأ في بعض الأحيان إلى الشعر المرسل ووجه إلى محبي القافية الواحدة من جماعتي الرومانتيكيين والبرناسيين عبارته الحادة الساخرة: «لا تنظروا إلى ردائي وأحذيتي بل انظروا إلي وجهًا لوجه، انظروا إلى وجهي وحاولوا أن تقرأوا فكري من أعماق عيني.»

ولكننا نجد في كل زمان ومكان جماعة التقليديين والمحافظين والحفريين لا يحبون هذه الطلاقة لا في اللفظ ولا في المعنى ولا في القافية، ولا يميلون إليها جميعًا، ونعرف من هؤلاء في فرنسا المسيو دي بانفيل الذي كان يرى أن تفكير الشاعر هو القافية، وأن الشاعر لا رأي له، وإنما الشاعر هو من يؤلف القوافي ذات النغمات الموسيقية! ويتجاوب مع هذا التقليدي المريع جماعة المحافظين في مصر، وأولئك جميعًا يكفرون بالفكرة ولا يعرفون موسيقاها ... أولئك لن تعمر أعمالهم أكثر من تعمير رنينهم في الآذان الأسيرة، بل أولئك جعلوا — مع الأسف — من الشعر صناعة وأفقدوه رسالته المقدسة التي جاء من أجلها وهي تثقيف الشعور وتنبيه الفكر وشحن الانفعالات وتهيئة الطمأنينة للروح، وأولئك قد شنوا حربًا شعواء على شعراء الشباب المجددين واستقبلوا بصيحات الغربان قصائد المجددين الذين يرون الجمال والموسيقى في الفكر وفي انسجام الترتيل. ولقد حملوا على شكري حملة غير شريفة، وها هم الآن يوجهون سهامهم إلى أبي شادي القوي

المراس، وإلى غيره من الذين ينادون بالشخصية في الأدب وبالطلاقة والحرية والذين يهتمون بالفكرة ويدخلون الألفاظ الشعرية الجديدة والأخيلة الطريفة في أساليبهم الشعرية ويلبسون قصائدهم مسحة من الجاذبية الحبيبة لذوي النفوس المتصوفة والطبائع السمحة. وسوف تذهب هذه الصيحات الناعبة أدراج الرياح، وسوف يتجاوب الناس بشعر المجددين لأنه الشعر الطبيعي ولأنه القائم على تفهم روح الأشياء وعلى العاطفة الشعرية والتأثر الصادق والفكرة العزيزة، والزمن كفيل بأن يعيد المتعنتين إلى مهيح الصواب وسبيل الإنصاف، فيتجاوبون مع نفوس المجددين ويستمعون إلى مقياس أبي شادي الصائب في الحكم على الشعر حين يقول:

كُنْ أَنْتَ نَفْسِي وَاقْتَرِنْ بِعَوَاطِفِي	تَجِدِ الْمَعِيبَ لَدَيَّ غَيْرَ مَعِيبٍ
شِعْرِي — الَّذِي تَأْبَاهُ — أَنْفُسُ مُهْجَتِي	وَكَفَاهُ أَنْ يَحْيَا بِنَفْسٍ أَدِيبٍ
عَبَثًا تُحَاوِلُ فَهَمَّهُ بِتَحَامُلٍ	إِنَّ الْعَدَاءَ يَرُدُّ كُلَّ حَبِيبٍ
لَوْ طُرْتَ فِي دُنْيَا حَيَالِي لَمْ تَكُنْ	إِلَّا رَفِيقَ مَسَرَّتِي وَوَجِيبِي
مَا كَانَ هَذَا الشُّعْرُ مِنْ لُغَةِ الْوَرَى	لَكِنَّهُ قَلْبِي وَرُوحُ حَبِيبِي!

ولعله يأتي قريباً ذلك اليوم الذي يتجاوب فيه سواد الناس مع هذا الشعر الجديد، عندما يدركون مذهب الشعر ورسالته، وليس من شك في أن أرواحاً تتجاوب مع شعر المجددين في أقطار الشرق يجهلها المجددون كما يقول الشاعر الموهوب لامارتين في قصيدة «الخريف»:

لَعَلَّ فِي سَوَادِ النَّاسِ رُوحًا أَجْهَلُهَا تَفْهَمُ رُوحِي وَتَتَجَاوَبُ مَعِي

Peût être dans la foule, une âme que j'ignore
Aurait compris mon âme, et m'avait répondu.

ونحن نرحب بهذا الديوان الصغير العزيز لا باعتباره ذكرى من ذكريات حب الشاعر التالد، بل باعتباره نفحة من نفحات تورثه الفتية، وآية من آيات التجديد في أغراض الشعر ومعانيه وأسلوبه. ورجعة خاطفة إلى الديوان ترينا الشاعر قد احتفل بذكر الحب في كثير من القصائد، ونجد الروح الوطني ينعكس علينا من مرآة الماضي. فها هو الشاعر يرسل تحية بارعة إلى سجين القلم محمد بك فريد ويعتز بعاطفة الآباء

في قصيدته «عيش الحر» ويحيي صديقه الشاعر البار علي الغاياتي، ويحيي شهيداً من شهداء السياسة، ويقف متحدّثاً بخلال مصطفى كامل رحمه الله في حجه حول تمثاله، ويضم إلى صدره وطنه الكليم في حنو وإشفاق، ويذكر في تأثر ودموع الخُلف بين الأحزاب المصرية من ربع قرن بروح نزاعة إلى القومية الصادقة عازفة عن التحزب البغيض، وهي الروح الصافية التي صاحبته منذ حادثته إلى الآن. فيها هو مثلاً يخاطب المجاهد النبيل فريد بك قائلاً:

سَيَّانٍ كُنْتَ بِنِعْمَةٍ أَوْ نِقْمَةٍ مَا دُمْتَ تَرْضَى بِالْجَهَادِ حَجَاكَ
سَيَّانٍ كُنْتَ مُقَرَّبًا أَوْ مَبْعَدًا مَا دَامَ حَرُّ الْعَابِثِينَ مُنَاكَ
وَكَفَاكَ فَخْرًا أَنْ تُنَاضِلَ أُمَّةً كَمْ أَرْهَقْتَ مِنْ مُصْلِحِينَ سَوَاكَ

وها هو يصف الزعيم الأبي الشجاع مصطفى كامل بقوله:

يَا كَبِيرَ الْيَقِينِ فِي قُوَّةِ الْحَقِّ قَى وَيَا بَانِيًا قُلُوبَ الرِّجَالِ
يَا كَثِيرَ الْإِبَاءِ فِي دَوْلَةِ الْبِ غِي وَيَا نَاسِقًا صُرُوحَ الضَّلَالِ

إلى جانب هاتين العاطفتين المنبتتين في شعر أبي شادي، وهما عاطفة المحبة الطاهرة وعاطفة الوطنية المتحمسة، نجد الديوان يحوي نماذج من الشعر الفلسفي والشعر الغنائي وشعر الطبيعة. فشعره الفلسفي يتجلى في قصائده «التبرم» و«حظ الناقمين» و«الدنيا» وغيرها من القصائد. والشعر الغنائي ظاهر في قصيدته «وطني! وطني!». أما شعر الطبيعة فما أحفل الديوان به، وقد أتينا على نماذج منه في قطعة «حياتان» التي يذكر الشاعر الطبيعة فيها ويجد في حنانها ووداعتها لذته وأنسه، وفي «أنفاس الخزامى» التي فاح في الديوان عطرها، وفي قطعة «وحي المطر» وفي قصيدة «مسرح الليل» التي وصف فيها الليل بأنه مسرح للطهر والتهتك:

مَسْرَحَ اللَّيْلِ! أَيُّ مَلْهَى عَجِيبٍ أَنْتَ تَبْدُو لِلشَّاعِرِ الْفَنَانِ
أَنْتَ مَلَقَى الْعَبَادِ وَالطُّهَرِ بَيْنَا أَنْتَ مَجْلَى التَّهْتِكِ الْمُتَفَانِي!

ثم يصف فيها وحي النجوم وصفًا دقيقًا إذ يقول:

وَالنُّجُومُ الَّتِي تُطَلُّ عَلَيْنَا فِي حَنَانٍ وَرَعْشَةٍ وَافْتِتَانٍ

والذي يثير إعجابنا حقًا أن نجد الشاعر الشاب يسبق جيله في طَرُق موضوعات تبدو تافهة، موضوعات غريبة على معاصريه، كما نجد ذلك واضحًا في قصيدته «القطعة اليتيمة» التي أخذ يخاطبها بقوله:

جَلَسْتُ قُرْبِي كَأَنَّ قُرْبِي عَزَاءَ إِحْسَاسِكَ الْيَتِيمِ
وَكَمْ تَأَلَّمْتُ فِي حُنُوي عَلَيْكَ فِي صَمْتِكَ الْأَلِيمِ

ثم ينتهي بمخاطبتها في حنان ورقة إذ يقول:

فَلَتَغْنِمِي أَنْتِ مِنْ حَنَانِي مَا شِئْتِ يَا طِفْلَةَ الْغَرَامِ

وهذا الميل إلى المخاطر التأملية ومعالجة الأشياء البسيطة ظهر واضحًا جليًا في شعره فيما بعد، وقد أتينا على نماذج من هذه المخاطر في مقال عن «أبي شادي الشاعر» نُشر بملحق (السياسة) الأدبي، ولعل هذا الميل أيضًا هو آية من آيات المزاج الشعري الدقيق والذي سبقنا إليه بعض شعراء الغرب الكبار مثل شاعر الطبيعة الإنجليزي وردزورث الذي كان يرى أن أحقر الأشياء تصلح للشعر، ومثل الشاعر الفرنسي بودلير الذي رأى «كلبًا ميتًا» مسجى على العشب بين الأزهار النضرة، فأخذ يصفه وصفًا غريبًا مدهشًا، والذي وصف قطه الجميل ذا العينين الزمرديتين والذي تمثلت له فيه زوجته! فنظراتها كنظرات هذا الحيوان الوديع!

وما أروع وأبداع ما قاله أبو شادي في وصف هذا الميل الشعري في أبياته الساخرة الحنونة:

مَنْ كَانَ يَشْعُرُ دَائِمًا بِشُعُورِي فِي اللَّيْلِ أَوْ فِي الْفَجْرِ أَوْ فِي النُّورِ
وَيُصَاحِبُ الْأَجْرَامَ فِي حَرَكَاتِهَا وَيَجُوزُ عَيْشَ النَّاسِ كَالْمَسْحُورِ
وَجَدَ التَّجَدُّدَ دَائِمًا إِلْفًا لَهُ فِي النَّفْسِ أَوْ فِي الْعَالَمِ الْمَعْمُورِ

وَرَأَى الْحَيَاةَ بِمَا تُجَدِّدُ دَائِمًا أَسْمَى مِنَ الْإِفْصَاحِ وَالتَّعْبِيرِ
تُوجِي وَتُوجِي دَائِمًا، فَإِذَا الَّذِي أَوْحَتْهُ بَعْضُ جَدِيدِهَا الْمَقْدُورِ
لَوْ أَنْصَفَ الشُّعْرَاءُ مَا قَنَعُوا بِمَا خَلَقُوهُ مِنْ شِعْرِ وَمِنْ تَصْوِيرِ
كَمْ فِي الْحَيَاةِ مُجَدِّدٌ لَا يَنْتَهِي وَلَكُمْ حَقِيرٌ وَهُوَ غَيْرُ حَقِيرِ

من هذا نرى أن شعر أبي شادي تأثر في حياته الأولى بالحب الطهور، وامتزج بالعاطفة الوطنية الحارة، وتأثر بالطبيعة المصرية، وتلون بإيحاء أعلام الشعراء وإن تجلت فيه شخصيته بدرجات مختلفة. تلون بوطنية حافظ الصادقة، وموسيقى شوقي المنغومة، وأخيلة مطران الحرة. وهذا التأثير ظاهر في كثير من قصائده، ويتجلى ذلك مثلاً في قصيدته «الحب والأمل» التي جاء فيها:

وَفَى الرَّبِيعِ فَحَيَّ الْحُبَّ وَالْأَمَلَ وَسَائِلِ الذِّكْرِ إِنْ كَانَ الْفُؤَادُ سَلَا
وَأَحْفَظْ حَدِيثَ الْغَوَانِي فِي أَزَاهِرِهِ وَأَحْرِصْ عَلَى النَّفْسِ أَنْ يَدْنِيَ لَهَا الْأَجَلَا
مِنْ كُلِّ هَيْفَاءٍ إِنْ مَاسَتْ وَإِنْ نَظَرْتُ لَمْ تَتْرِكِ الْقَلْبَ إِلَّا حَائِرًا وَجَلَا

فإن أثر شوقي محسوس في هذه القصيدة. ولكن أبا شادي لم يقف عند حد مثل هذا التأثير ولا عند حد تجاوبه مع زعيم المجددين خليل مطران، بل تحول إلى الأدب الإنجليزي وتأثر به على قدر مطالعته في ذاك الحين. وظهر أثر هذا التأثير في قطعة «موسيقى الوجود» التي نظمها متأثراً بقصيدة «موسيقى العالم» للشاعر جبرائيل سيتون. وإلى هذا فإننا نلاحظ في هذا العهد نزوع الشاعر النسبي إلى الابتكار وإلى التفكير الحر وإلى الطلاقة الشعرية، كما يتجلى ذلك في قصيدته «أنفاس الخزامى» وهي من أفكاره الأصيلة، وفي قصيدته «بنات الخريف» التي نزع فيها نزعة مستقلة متجردة عن آثار كبار الشعراء في عصره، وهذا ينم عن وجود شخصية فنية فتيّة تعمل للبروز وللحياة، شخصية بدأت مرحلتها الفنية مدفوعة بعاطفة الحب الفردي والحب القومي وأخذت تتطور إلى العاطفة الإنسانية العامة، وغمرت تلك العاطفة الأخيرة دواوينه التي نشرت حديثاً. فعاطفة الحب الفردي اختفت تقريباً من دواوينه الأخيرة وإن كان قلبه لا يزال يندلع به اللهب، وعاطفة الوطنية المتحمسة هدأت واعتدلت وتسيطرت عليها العاطفة الإنسانية التي جعلته يميل إلى «الأسلوب المتعادل» يعبر به عن شعوره، وينزع إلى الطلاقة في التفكير والصدق في الطبيعة، وإلى الانسجام في الترتيل، وإلى الروح الشعرية

العامة التي تجعل شعره قابلاً للترجمة إلى أية لغة، وبهذا كَوَّن أبو شادي لنفسه نزعة خاصة، وشخصية فنية مستقلة.

ولنا كل الحق بعد هذا أن نرحب بهذا الديوان البكر في ثوبه الجديد لأنه قطعة من نفس الشاعر وعمل يفتخر به كبار الأدباء في نشأتهم، ولأنه من البذور الأولى لأزهار الشعر الحديث ومن الإرهاص الأول لحركة التجديد الأخيرة.

ونكرر التأكيد بأن هذا الديوان سوف يرضي بجمال ديابجته جمهرة المحافظين وقد أَرْضَى أمثالهم من قبل، كما سوف يبهج بجرأة أخيلته وبراعة تصويره أذهان المجددين. ونحن بلا ريب نفخر بجهود أبي شادي التعاونية الحاضرة وبروحه الأدبية النبيلة المتسامحة، التي لا نجدها في جمهرة أدبائنا، ولا نريد أن نترك القلم حتى نسجل أسفنا للحملات المجنونة التي يشغب بها فريق من المحافظين وبعض العاثرين من عجزة الأدباء ضد أبي شادي وضد أدباء الشباب، بل نأسف أكثر من ذلك لتلك الطعنات التي يوجهها إليه حتى بعض من أشاد أبو شادي بذكرهم. ويسرنا أن أبا شادي يقابل تلك الحملات بالسماحة، وبالإننتاج الفكري المطرد، تاركاً لأعماله ذاتها إنصاف نفسها بنفسها، وقد تعود الآلام والجحود من قديم في بيتنا المصرية المتأخرة فناجى نفسه مناجاة قوية في قصيدته الرائعة «فؤادي» التي يقول فيها:

تَشَجَّعْ فِي الْمَصَائِبِ يَا فُؤَادِي	وَكُنْ بِصَلَابَةِ الْحَجَرِ الْكَرِيمِ
أَلَسْتُ كَجَوْهَرٍ فِي طَيِّ جِسْمِي	خَبِيءٍ لَا يَعْرِفُ لِللَّيْمِ
إِذَا الْأَحْدَاثُ عَضَّتْ فِيكَ فَاكْسُرْ	نُيُوبًا لَنْ تَنَالَ مِنَ الْعَظِيمِ!

ولا ريب أن الأدب المصري يغتبط أشد الاغتنباط بمثل روح أبي شادي كما يشجى أشد الشجى من تصرفات الأدباء الناقمين، وأن التاريخ الأدبي ليجذل أيضاً بخروج هذا الديوان من اعتكافه لأنه يحمل ذكريات أيام طيبة خالية، ويزيح الستار عن صورة التطور الروحي للشاعر، ويكشف عن شخصيته الفتية التي بدأت تتفتح للنور وتشق طريقها إلى الفن وإلى المجد. ولكأنى به يرسم خطرات نفسه الطموح في عهد الحداثة بقوله في مقطوعة «حظ الناقمين»، يقول:

سَلَخْتُ مِنَ الْأَعْوَامِ بَضْعًا وَعَشْرَةً أَقِيمُ عَلَى دِينِ الْعُلَا وَأَسِيرُ
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِي الْقَلْبِ لَوْعَةٌ عَلَى أَنَّ كُلِّي هِمَّةٌ وَمَرِيرٌ!

وبودّي لو يتنبه جمهرة القراء إلى جهود هذا الشاعر الإنساني، ويتمعنوا في شعره وأخيلته ليلمسوا ما يعيه من شاعرية صافية ويمسوا ما فيه من جمال محجب.
ولا يسعني أخيراً إلا أن أقدم للشاعر إعجابي بروحه الأدبي النبيل، وثنائي على ديوانه البكر الفريد،

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

(٢) شخصية أبي شادي ومميزات شعره

إنها لفرصة سعيدة، تلك التي أتاحتها لنا الشاعر المجدد الدكتور زكي أبو شادي بإعادة طبع ديوانه الأول (أنداء الفجر) لنتحدث عنه وعن الباكورة الأولى، وما اشتملت عليه من شعر الطبيعة والتصوير والعاطفة، ومميزات الشخصية في هذا الشعر، وخصائص التجديد فيه.

وإذا أردت أن أتحدث إليك عن الشاعر أبي شادي أو أرسم لك صورة عنه فلا تظن أنني سأجمع كل أدوات التهويل والتضخيم مستعيناً بها! كلا، فما تصورت أن أتناول الناس بمثل هذا، ولا أحسبه يرضى بذاك، ولكن سأحاول أن أرسم لك صورته دون زيادة أو نقصان، وإن كنت لم أره غير مرة واحدة إلى اليوم. إن أبا شادي رجل اعتيادي لا يروعك صامتاً، ولكنه إذا ما تحدث إليك راعك منه أنه يحيا في الحياة، بنفس طفل، وقلب شاعر، وفكر فيلسوف. وهو لا يحاول التحامل على الغير كاتباً أو محدثاً، فهو إذا حدثك عن أديب أو شاعر، ذكر لك محاسنه ومساوئه كما يرى هو دون تحيز أو افتئات، وموقفه ممن يسيئون إليه دائماً هو موقف الرثاء لهم، أو الإشفاق عليهم، وكم مطاعن وجهت إليه فاستقبلها باسماً ثابتاً، كما يثبت الطود الأشم للإعصار العتي، وكثيراً ما عادت عليه هذه المطاعن، بعكس ما كان ينشده أصحابها:

كَمْ مِنْ مَطَاعِنَ لِي تُكَالُ كَأَنَّهَا شَرَفٌ يُكَلِّلُ هَامَتِي بِالْعَارِ!

وهو لا يندم إذا ما جزاه الناس على حسناته بالقحة والتقوّل، ولكنه يلتمس لهم
المعاذير، لعلمه أن هذه هي طبيعة الحياة:

فِيمَ النَّدَامَةِ إِنَّ شُتِمْتُ دَنَاءَةً وَجَزَاءَ مَا أَسْدَيْتُ مِنْ حَسَنَاتٍ؟
النَّحْلُ يُعْطِي الشَّهْدَ جُودًا سَائِغًا وَلَكُمْ يُكَافِئُهُ الْوَرَى بِأَذَاةٍ!

فهذا الشاعر هو في الواقع رمز التسامح والنبل، وكلما أخرجت صدره المخرجات
هرب من هذه الدنيا الخسيسة إلى دنيا التفاؤل والخيال، ليتلهم بمناظرها وليغرق في
محيطها ما علق به من أوشاب حياتنا الذميمة:

وَأَعِشْ فِي دُنْيَا التَّفَؤُلِ نَاسِيًا دُنْيَا تَفِيضُ قَسَاوَةً وَعَدَاءً!

ولم يخدم الأدب والشعر في هذه الأيام أحدٌ بمثل ما خدمهما ذلك الشاعر، فلقد
أنشأ مجلة (أبولو) وجعلها منبرًا حرًا للشعر والدراسات الشعرية، فأوجد بذلك نهضة
في الشعر حَرِيّة بالالتفات إليها، كما كشف لنا عن أكثر من خمسين شاعرًا، كانوا لولاه
سيظلون مغمورين مجهولين، لا يحس بهم أحد، ولا يعلم من أمرهم شيئًا. وأكثر من
هذا أنه كان وما زال ينشر الأبحاث ناظرًا لأهميتها دون أصحابها، وكثيرًا ما كان ينشر
الأبحاث لأعدائه، يذمونه فيها ويعيبون طريقته، وكثيرًا ما كان يؤثر هذه الأبحاث على
أبحاث أخرى ترد إليه وكلها مدح فيه، واستحسان لطريقته ومذهبه، فقل لي بربك من
رئيس التحرير هذا الذي ينشر لخصومه سهامهم المفقّوة إليه؟ أما أنا فلا أعلم أن أحدًا
من رؤساء التحرير بلغ به النبل أو التسامح إلى هذا الحد، ولكني أعلم أنهم يفرقون
كل الفرق من النقد الخفيف يوجّه إليهم، كما أعلم أنهم لا يتورّعون عن أن ينشروا كل
كلمة من مدح أو استحسان تصاغ فيهم، حتى ولو كان صاحبها يقصد بها إلى المداعبة
والسخرية من طرف خفي.

ذلك هو شاعرنا المتجدد أبو شادي في كلمات قصار. وأعود الآن بك أيها القارئ
إلى ديوانه الأول (أنداء الفجر) بعدما تشعب بنا وبك الحديث، فالكلام عن هذا الديوان
هو الغرض الأول وبيت القصيد، ولعل الذي حفز الشاعر إلى إعادة إخراج هذا الديوان
من جديد هو تحقيق رغبة حبيبته الأولى «زينب» صاحبة هذا الديوان، وموحية فرائده،
والتي يهدى إليها الديوان في قصيدة رائعة مؤثرة منها:

رُبُعُ قَرْنٍ مَضَى وَهَيْهَاتَ تَمْضِي شُعْلَةُ الْحُبِّ عَنْ وَثُوبٍ وَوَمَضٍ
لَمْ أَزَلْ ذَلِكَ الْفَتَى فِي جُنُونِي وَفُؤَادِي فِي نَبْضِهِ أَيَّ نَبْضٍ
ذِكْرِيَّاتُ الْهَوَى وَأَشْبَاحُهُ النَّشْوَى أَمَامِي فِي كُلِّ صَحْوٍ وَغَمَضٍ
نَشَرْتُ فِي السُّطُورِ بَعْدَ احْتِجَابٍ كَنْثِيرِ الْحَيَا عَلَى زَهْرِ رَوْضٍ
كَمْ شَقِينَا تَفَرَّقًا وَحَيَاءً وَخَضَعْنَا لِحُكْمِ دَهْرٍ مَمَضٍ
وَرَجَعْنَا نَنُوحُ نَوْحَ يَتِيمَيْنِ عَلَى ذَلِكَ الصَّبَا الْمُنْقَضِ
عَلِمَ الْحُبُّ لَيْسَ غَيْرُكَ مُجْدِي فِي وَفَاءٍ وَلَيْسَ غَيْرُكَ خَفْضِي!

ولعل الذي دعاه إلى ذلك، هو إلحاح إخوانه وأصدقائه عليه بإعادة طبعه، لما فيه من روح الصبا، التي لم يبقَ له منها غير الذكريات التائهة والحنين الشارد. ولعل الذي دعاه أكثر من ذلك، هو شوق أشقاء هذا الديوان وهم كثر بين أنين ورنين، ومصريات، وزينب، ووطن الفراغة، والشفق الباكي، وأشعة وظلال، ووحى العام، والشعلة، وأطياف الربيع، والينبوع ... وغيرهم، إلى أن يجدد والدهم البار شباب شقيقهم الأكبر فيسعدوا بطلعته، ويحيوها ليلة شاعرية في مولده.

أما نحن فإنه ليهما كثيرا أن يظهر هذا الديوان، ولو لم يعمل الشاعر على إظهاره مؤثرا كعادته الإنتاج الجديد لطالبناه به لأننا نريد أن نعرف، هل كان المذهب الشعري الذي يدعو إليه شاعرنا في هذه الأيام متميزا في أشعاره الأولى أم هو طارئ عليه بعد الدراسة الطويلة في الآداب الفرنسية؟ وهل شخصيته التي تطالعنا في دواوينه الحديثة هي شخصيته الأولى، أم أصابها شيء من التحوير؟ وما هي الأغراض والدواعي التي كان يقول فيها الشعر، في الوقت الذي كان فيه كثرة الشعراء المعاصرين يفنون أوقاتهم في معارضة المتنبي أو البحري أو أبي فراس وغيرهم؟ أو في نظم القصائد المهلهلة في مدح من لا يستأهل المدح، أو رثاء من لا يعرفون، رغبة في الظهور على جثث الموتى وأشلاء الزاهبين؟

يتلخص مذهب أبي شادي الشعري في تجديد اللفظ والأسلوب والقافية والمعنى، فهو كثيرا ما يترفع عن الألفاظ والأساليب التقليدية حتى يظن المتزمتون أنه يتهاون في ألفاظه وأساليبه، وهو يحل نفسه من قيود القافية في كثير من شعره، حتى ليخيل إليهم أن ذلك ضعف وعدم قدرة على مسايرة القافية الواحدة. وهو يتعمق في كل معنى

يلمسه، ويجيل طرفه في كل ما يحيط به كبر أو صغر، فيخرج منه معنى شعرياً جديداً، فيحسب الجامدون أنه لا يتخير موضوعات شعره، فإذا سمعوه ينظم في «ذباب الصيف» صاحوا به: أوحى الذباب يستأهل منه العناية والالتفات؟ يا للعجب! وما يبقى للشاعر أيها الفقيه إذا لم يسجل كل ما تنفعل له نفسه هان أم عظم؟ ولكن الشاعر لا يجشمن مشقة الرد عليهم في ذلك، فيدحض هو هذه الفرية في قصيدة «التجدد»:

لَأُمُوا شُبُوبَ عَوَاطِفِي وَتَخِيلِي	وَتَدْفُقِي بِالشَّعْرِ مَلءَ شُعُورِي
وَأَنَا الْخَجُولُ أَمَامَ مَا أَنَا نَاطِرٌ	مِنْ كُلِّ مُوحٍ بَالِغِ التَّأثيرِ
فَيَهْزُنِي هَذَا، وَلَكِنِّي الَّذِي	مَهْمَا أَجَدْتُ أَحْسُ بِالتَّقْصِيرِ
وَأَكَادُ أَوْقِنُ أَنَّ مَنْ هُوَ لَائِمِي	إِمَّا ضَرُرُّ أَوْ شَبِيهُ ضَرِيرِ
إِنَّا بِكَوْنِ كُلِّهِ شِعْرٌ بِلَا	حَصْرِ، وَكَمْ مِنْ عَاجِزٍ مَغْرُورِ!

وقد جمع أبو شادي في (أنداء الفجر) ألواناً من شعر الوصف، والحب، والوطنية، والهيام بالطبيعة، والفلسفة، وهو في كل ناحية من هذه النواحي، لم يشذ عن طريقته أو يخرج على مذهبه.

فاستمع إليه وقد أخذ يصور لك أنداء الفجر، على ثغور الأزهار، وفي ألق الشعب، وفوق الغصون، بشعر لم يسعد الشعر العربي بأبداع منه لفظاً ومعنى ورقة وعدوبة، فيقول:

مِنْ دُمُوعِ النُّجُومِ، مِنْ سَهَرِ الْعَا	شَقِ صِيغَتِ، وَمِنْ رَجَاءِ الْحَيَاةِ
فِي حَنَانِ وَرَقَةٍ، وَهِيَ لَا تَمُ	لِكَ مِنْ عُمْرِهَا سِوَى لَحَظَاتِ
فِي ثَغُورِ الْأَزْهَارِ، فِي أَلْقِ الْعُش	بِ وَفَوْقَ الْغُصُونِ تَحْيَا وَتَفْنَى
وَهَبَتْ حُسْنَهَا الصَّحِيَّةَ لِلشَّم	سِ، كَأَنَّ الْفَنَاءَ لِلشَّمْسِ أَغْنَى
وَيَعُودُ الْفَجْرُ الْوَفِيُّ بِهَا بَع	ثًا وَلَكِنْ تَعُودُ تَمْضِي الصَّحِيَّةُ
هِيَ مِلْكُ لَنَا حَيَاةٍ وَمَوْتًا	وَهِيَ بِالرُّوحِ صُورَةُ الْأَبَدِيَّةِ

إن هذه المقطوعة البارة من الشعر التصويري حسنة من حسنات الشاعر، ولو لم يكن له غيرها في الوصف لكفته غنى فنياً.

ويرى شاعرنا القارب يشقُّ طريقه على صفحة الماء في زهور وابتهاج، فيشجيه هذا المنظر ويسترعي خياله، فإذا به يطرفنا بصورة صغيرة:

يَشُقُّ الْقَارِبُ الْمَرْهُوُ مِثْلِي طَرِيقًا فِي الْمِيَاهِ مَعَ ابْتِهَاجِي
فَيَكْسِرُ صَفْحَةً لِلْمَاءِ رَاقَتْ وَنَسْمَعُ صَوْتَ تَكْسِيرِ الزُّجَاجِ

فهنا يذكرنا أبو شادي بأيام طفولته وابتهاجه، أيام كان يكسر الزجاج وغيره كما يكسر القارب صفحة الماء الراققة.

وأزهار الخزامى، ماذا كان شأنها مع الشاعر؟ إنها لأزهارٌ مصريَّةٌ صميمةٌ ومن مصر انتشرت إلى سائر الأقطار، ولقد وقف أمامها الشاعر يحدثنا في غزل صوفي عن أنفاسها ويصف ما توحى به إلى النفوس الشاعرة، من خطرات ومعانٍ ساميات:

أَيُّ عَطْرِ فَاقَ أَنْفَاسَ الْخُرَامَى فِي حَنَانٍ يَمْلَأُ الرُّوحَ سَلَامًا؟!

* * *

لَا يَرَاهَا غَيْرُ مَنْ كَانَتْ لَهُ رُوحُهَا أَوْ مَنْ بِحَاكِهَا غَرَامَا
تَتَوَارَى عَنْ عُيُونٍ لَا تَرَى بِقَّةَ الْحُسْنِ، وَأُخْرَى تَتَعَامَى
أَيُّهَا الْأَنْفَاسُ طِيبِي وَأَنْشُرِي خَطَرَاتِ الْحُبِّ حَتَّى يَنْسَامَى
كَمْ وَقَفْنَا فِي مَجَالِي نَشْوَةٍ عِنْدَ مَرَاكِ فُتُونَا وَاحْتِشَامَا
لَمْ نَقْبَلْ غَيْرَ مَعْنَى حَائِمٍ حَوْلَنَا مِنْكَ عَشِيقُنَاهُ دَوَامَا!

واستمع إليه وهو يصف لك مسرح الليل وما يختلف عليه من مرآة ومشاهد عجيبة، تخلقها يد الليل الساحرة، أو تمنع في مقطوعته «بنات الخريف» والتي يقول في مطلعها:

هَلُمِّي! هَلُمِّي! بَنَاتِ الْخَرِيفِ
وَطُوفِي وَطُوفِي بِهَذَا الْحَفِيفِ
نَرَاكِ بِأَوْهَا مِنَّا جَائِلُهُ!

فإنك لا شك واجدٌ ضروريًا من الوصف جديدة تشهد لصاحبها الناشئ بأن سيكون له في المستقبل شأنٌ عظيمٌ في الوصف. أوليس هو القائل بعدُ في ديوان (الينبوع) عن فتيات الريف قد اجتمعن على شاطئ الغدير يملأن الجرار ويغسلن الثياب:

مَا بِالْهَنِّ لَدَى الْغَدِيرِ حَوَانِيَا يَنْشُدْنَ لِلْمَاءِ النَّشِيدَ الْغَالِيَا
وَالْمَاءُ يَضْرِبُ فِي حَنَانٍ دَافِقٍ أَقْدَامَهُنَّ فَمَا تَرَاهُ يُبَالِي؟
يَغْسِلْنَ عَابِسَةَ الْمَلَابِيسِ تَارَةً وَالشَّطُّ مَزْهُوٌّ بِهِنَّ مُبَالٍ

إنني لأكاد أسمع من خلال هذه الأبيات أناشيد الريفيات وامتداد الماء إلى الشاطئ مرتميًا على أقدامهن في حنان دافق، كما أكاد ألس فرحة الشط بهن، ومع ذلك يتصايح الجامدون: أين الشاعر المصري الذي يصف الحياة المصرية؟! ثم أليس قد أبدع أيضًا إذ وصف الجدول الصغير جاريًا كما تجري الطفولة في ابتهاج على حين قامت حوله الحور كأنها تحرس جسمه العاري فيقول:

وَبَدَا الصَّغِيرُ الْجَدُولُ الْجَارِي كَمَا تَجْرِي الطُّفُولَةُ فَرْحَةً وَحَنَانًا
فَعَبَطَتْهُ، وَالْحُورُ قَامَتْ حَوْلَهُ كَالْأَهْلِ تَحْرُسُ جِسْمَهُ الْعُرْيَانَا

ويجب أن ننبه هنا إلى أن أبا شادي يكثر دائمًا من تقديم الصفة على الموصوف للتنبية الشعري كما يقول «وبدا الصغير الجدول»، وأنا لم أر ذلك لشاعر من قبله ولعلها إحدى حسناته.

فمما تقدم تستطيع أن تدرك أيها القارئ مدى تفوق شاعرنا في الوصف، وقدرته على أن يريك ذوات موصوفاته كائنات حية تفرح وتغتبط.

أما الغزل فله النصيب الأوفى من الديوان، وما هو إلا صلوات يتقرب بها إلى حبيبته الأولى «زينب». ولقد اشتدت العلة بشاعرنا يومًا، فإذا هو ينشد بين الحب والأمل قصيدًا سائغًا، يصف فيه حاله، ويعتب على الدهر، ويعد عليه ذنوبه، ويوسع معبودته جدلاً طويلاً على نومها عنه، وهي تداعبه وتبكي له وتقربه:

مَرَّتْ كَحُلْمٍ يُجَارِيهِ الدَّلَالُ فَلَا نَمْتُ عَلَيْهِ، وَلَا أَخْفَتْ لَهُ مَثَلًا
وَدَاعَبَتْني بِصَوْتٍ خَافَتْ وَبَكَتْ وَقَرَّبَتْني، وَقَالَتْ: حَسْبُنَا جَدَلًا

الدَّهْرُ فَرَّقَنَا، والدَّهْرُ أَلَفَنَا فَاَنْسُ الدُّنُوبَ، وَلَا تَعْتَبْ لِمَا فَعَلَا!

فانظر إلى قوله: «قربتني». في البيت الثاني، وإلى حذف متعلق الفعل، ثم قل لي: أي سحر أو حسن، وأي أفق من النعيم، يختفي وراء هذه الكلمة العذبة بعد الحرمان الطويل؟ وتقذف الأمواج من على شاطئ الحب، وتباعد الأيام بينه وبين عهود صباهه الأولى، ثم يلتفت فجأة ليرى أين هو من هذه العهود، فإذا هو قد بعد عنها، أو قد بعدت هي عنه، وإذا هو لا يرى معلماً يهتدي به، أو شرفاً مطمئناً يأوي إليه، وإذا هو ينشد في لوعة جازعة، وحسرة غائرة:

مَا يَنْفَعُ الصَّبَّ الْكُتَيْبَ مِنَ الْجَوَى	حَتَّى يَحِنَّ إِلَى الْبُكَاءِ حَنِينًا؟
أَسْفِي عَلَى عَهْدِ الصَّبَابَةِ لَمْ يَكُنْ	إِلَّا شُعَاعًا كَاذِبًا مَظْنُونًا!
أَسْفِي عَلَيْهِ وَقَدْ فَقَدْتُ شَبَابَهُ	وَوَهَبْتُ فِيهِ فُؤَادِي الْمَغْبُونَا
وَضَلَلْتُ مَحْزُونًا أَكْفِكُفْ أَدْمُعِي	أَمَلًا، وَعَشْتُ مُتَيِّمًا مَفْتُونَا
مُتَصَدِّعًا مِنْ لَوْعَةٍ، مُتَرَاكِجًا	مِنْ هَيْبَةٍ، مُسْتَغْفِرًا، مَسْجُونَا
يَا حَسْرَةَ الْقَلْبِ الضَّعِيفِ إِذَا رَجَا	مَنْ لَا يَزَالُ عَلَى الْوَفَى ضَنِينَا!

وهو لا يمكن أن يتلهى عن «زينب» أو يحيا في غير «زينب»، بل هو ما زال إلى اليوم يسير على وحي «زينب» مهما غبته ومهما عانى في سبيلها:

أَزَيْنَبُ! إِنَّ حَبِيبْتُ فَمَا حَيَاتِي	سَوَاكِ، وَمَا عَدَاهَا الْآنَ فَاِنِي
تُرَى هَلْ بَعْضُ أَشْوَاقِي يُرَجَّى	لَدَيْكَ، أَمْ الطُّفُولَةُ لَا تُعَانِي؟
كِلَانَا فِي الْهَوَى طِفْلٌ، وَلَكِنْ	أَنَا الطُّفْلُ الْغَيْبِيُّ! أَنَا الْمُعَانِي!

وتشيع أشعاره في «زينب» فإذا قومها حانقون عليه غاضبون، وإذا هم يحجبونها، ويبالغون في الحجاب، وما أشقَّ الحجاب على نفس الشاعر العاشق، وإن الموت لأهون عليه من أن يحترق بنار الحرمان وجحيم الحجاب، ولولا التقاليد القاسية ما حال بينه وبينها حجاب أو باب، وماذا يحدث لو ظهرت المرأة في مجتمعنا المصري، وهل ينتظر التقدم لشعب نصفه مفقود، أو سجين بين الجدران، فلا يستنشق الهواء، ولا يتمتع بنور الشمس؟ إن المجتمع الذي لا تباركه المرأة لا يمكن أن تقوم له قائمة بحال، ذلك أقل ما

يطوف برأس الشاعر عندما يذوده الناس عن مورده، كما أنه يرى العدم حيزاً من حياة تتحكم فيها التقاليد، وذلك ما حداً بأبي شادي عندما حجبوا «زينبه» أن يصيح:

يَا «زَيْنَ» دُنْيَايَ الَّتِي مَا نَالَنِي مِنْهَا سَوَى قَلْقِي عَلَى حِرْمَانِي
لِمَ يَحْجُبُونَكَ؟ هَلْ أَثْمْتُ بِكُلِّ مَا أُعْطِيتُ حُسْنِكَ مِنْ جَمَالِ بَيَانِي
فَإِذَا حُجِبْتُ فَمَنْ أَخْصُ بِمُهْجَتِي؟ وَلِمَنْ أَعِيشُ؟ وَمَنْ لَهُ وَجْدَانِي؟

وتهطل السحب بالمطر مدراراً، فإذا هو يوحى إليه بالظماً على حين قد رويت الغصون والأزهار، وإنه ليعجب كيف تتساقط القطرات من يد زهرة ليد أخرى، وهو وحيد ينشد الرّي، وكيف لا يذكر القطر حبيبته برسالة الحب فعساها تذكر، وتعطف عليه كما يعطف القطر على الأزهار والأشواك؟ وإني لأحس حقيقةً بظمنه عندما أقرأ هذه الأبيات:

أَنَا ظَامِيٌّ وَالْكُلُّ حَوْلِي ظَامِيٌّ فَتَقَطَّرِي يَا سَحْبُ كَيْفَ حَنَنْتُ
هَذِي الْغُصُونُ تَنَاولَتْ مَا خَصَّهَا وَلَبِثْتُ فِي ظَمْمِي لَوْحِيكَ أَنْتِ
تَتَسَاقَطُ الْقَطَرَاتُ مِنْ يَدِ زَهْرَةٍ لِيَدٍ، لِأُخْرَى، وَالْجَمِيعُ سُكَارَى
وَأَنَا الْوَحِيدُ! فَأَيْنَ أَيْنَ حَبِيبَتِي حَتَّى تَرُدَّ جَوَى، وَتُطْفِئَ نَاراً؟
هَلَا بَعَثْتَ إِلَى دَفِينِ شُعُورِهَا بِرِسَالَةِ الْحُبِّ الْوَفِيِّ الْبَاكِ؟
فَلَعَلَّهَا تَأْتِي وَتَنْثُرُ عَطْفَهَا كَالْقَطْرِ فَوْقَ الزَّهْرِ وَالْأَشُوكِ!

وكثيراً ما أبت عليه عبادته المتناهية لزینب كل مطعم، وكثيراً ما جنى عليه حياؤه، وأضاع أشواقه، فإذا كان قريباً منها بجسمه فهو بعيدٌ عنها بقلبه، هذا القلب الذي قد حُرِم كل شيء، فهو القريب البعيد، وهو هنا في حيرة بين عقله وعاطفته، فهو يريد كل شيء، ولكن عقله يصده عن أي شيء! فماذا يصنع؟ لا شيء إلا هذه المقطوعة من الغزل الرفيع:

مَا لِعَيْنِي كُلَّمَا أَلَقَاكَ بِالْفَرْحَةِ تَدْمَعُ؟
بِي رَجَاءٌ لَيْسَ يَخْبُو، وَرَجَاءٌ لَيْسَ يَلْمَعُ
وَأَنَا كَالْتَّائِهِ الْعَانِي إِلَى الْأَوْهَامِ أَفْرَعُ

هَآكِ قَلْبِي يَا حَيَاتِي نَبَّيْهِ كَيْفَ يَصْنَعُ؟
هُوَ فِي الْقُرْبِ بَعِيدٌ عَنْكَ يَهْفُو ثُمَّ يَجْزَعُ
آه! كَمْ يَجْنِي حَيَاتِي! آه مِنْ شَوْقٍ مُضَيِّعٍ!
وَعِبَادَاتٍ تَنَاهَتْ فَأَبَتْ لِي كُلَّ مَطْمَعٍ!

ونحن لا نستطيع أن نستقصي بالدرس والتحليل كل ما قاله الشاعر في هذا الديوان من شعر الحب والوجدان، ويكفي أن نعرض عليك زهرات من رياض حبه الأول لتعرف أن الرجل كان يعاني لوعة حب صادق، وأنه كان يتفجر عن معين عذب سائح، على حين كان كثرة معاصريه في الوقت ينحتون من الصخر شعراً فاتراً، يتغزلون به في «ليلى» و«هند» و«دعد» و«الرباب» و«مي» دون أن ينبض قلبهم بحب أو يختلج بعاطفة! ولكن لن نخرج من الكلام عن غزله حتى نختمه بموشح رائع، هو في الواقع مسك الختام، وفيه يتجلى لك مذهب أبي شادي الشعري واضحاً قوياً، وإنه ليدلنا دلالة واضحة على أن هذا المذهب ليس وليد الدراسة الجديدة أو وليد اليوم، ولكنه يرجع إلى مبدأ عهده بالشعر، فهو رسالة، كأنه أمر بتبليغها، مهما ناله في سبيلها. فاستمع إلى هذا الموشح «طاقة أنغام» تجد فنوناً من المعاني الجديدة، كما تجد ولعه بكل ما هو فني وبكونه المليء بالمعاني التي غابت عن كوننا نحن:

إِذَا اسْتَمَعْتُ إِلَيْكَ	فُتِنْتُ مِنْ تَوَقُّعِكَ
كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ	عَيْنِي بِمَجْلَى رَبِّيعِكَ
أَصْغِي إِلَى هَذِهِ الْأَلْحَانِ زَاهِيَةٍ	كَأَنَّهَا نَحْبُ الْأَزْهَارِ لِلْعَيْنِ
فَكُلُّ لَحْنٍ لَهُ لَوْنٌ يُضِيءُ بِهِ	وَجَمْعُهَا طَاقَةٌ مِنْ زَهْرِكَ الْفَنِيِّ
وَكُلُّ لَحْنٍ لَهُ عِطْرٌ يَفُوحُ بِهِ	وَإِنْ تَخَيَّلَهُ غَيْرِي مِنَ الظَّنِّ
وَأَنْتَ كَوْنِي، وَكَوْنِي فِي حَقِيقَتِهِ	جَمُّ الْمَعَانِي الَّتِي غَابَتْ عَنِ الْكَوْنِ
إِذَا اسْتَمَعْتُ إِلَيْكَ	فُتِنْتُ مِنْ تَوَقُّعِكَ
كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ	عَيْنِي بِمَجْلَى رَبِّيعِكَ

ولا أبيح لنفسي التعليق على هذه القطعة الفريدة، فإن كل تعليق مهما دقَّ لا يوفيها حقها، وإنما أقول لك: اقرأها مرة ثانية وثالثة فإنك ستلقى فيها فنوناً من الغذاء الروحي، قلما تقع على مثلها في ديوان بجملته لشاعر آخر في عصر لم يُعرف معظم

شعرائه غير التقليد والمحاكاة، ولا عجب في ذلك فالشاعرية لا تتقيد بسن أو عصر أو ثقافة.

وبعد، فنريد أن نعرف هل في الديوان الأول للشاعر أبي شادي ما يدل على ولعه بالطبيعة وفنائه فيها هذا الفناء الذي يتجلى في مثل قصائده: بحر السماء، الأشعة الصادرة، أستاذي المصور، أمنا الأرض، الشروق الهادي، حزن الفجر، صلاة الصباح، وغيرها من القصائد التي يندمج فيها بالطبيعة، وتندمج الطبيعة فيه؟ والجواب على ذلك هين سهل، فأنت إذا قرأت ديوان (أنداء الفجر) تستطيع أن تعثر للشاعر على مقطوعات هي في الواقع بذور صالحة لشغفه بالطبيعة، وعباداتها إياها، فقسيمة «موسيقى الوجود» ليست إلا فناء أمام جمال الكون وجلاله وتقديساً لمظاهر الوجود الرائعة:

حَدَّثُونِي عَنِ الْوُجُودِ الْمَغْنِيِّ	كُلُّ مَا فِيهِ صَارِحٌ يَتَغَنَّى
مِنْ جَمَادٍ وَمِنْ نَبَاتٍ وَأَحْيَاءٍ	فَلَيْسَ الْغِنَاءُ فِيهِمْ يَفْنَى
وَعَجِيبٌ إِذَا تَنَاءَيْتَ عَنِّي	لَمْ أَجِدْ لِلْغِنَاءِ فِيهِمْ مَعْنَى
وَإِذَا مَا ظَفَرْتُ مِنْكَ بِأَنْبَسِي	صَارَ هَذَا الْوُجُودُ لَحْنًا وَفَنًا

واقراً له مقطوعة «حياتان» تجد فيها هياماً بالطبيعة لا حد له، ففي مناجاته إياها يرى السعادة، وفي الابتعاد عنها يعاني الشقاء، وفي حمى إخوته من طيور ونبات يبدو له وحي أمه الطبيعة رائعاً جذاباً:

أُمِّي (الطَّيِّبَةُ)! فِي نَجْوَاكِ إِسْعَادِي	وَفِي ابْتِعَادِي أُعَانِي دَهْرِي الْعَادِي
وَفِي جَمَى إِخْوَتِي مِنْ كُلِّ طَائِرَةٍ	وَكُلِّ نَبْتٍ نَبِيلٍ وَحَيْكِ الْهَادِي
مَا بَالُهَا هِيَ صَفْوِي وَحَدَهَا فَإِذَا	رَجَعْتُ لِلنَّاسِ لَمْ أَظْفُرْ بِإِسْعَادٍ؟
كَأَنَّمَا النَّاسُ أَعْدَاءُ: فَبَعْضُهُمْ	حَرْبٌ لِبَعْضٍ، وَحُسَّادٌ لِحُسَّادٍ!

بل إن هذه المقطوعة لتذكرنا بشقيقتها «أمننا الأرض» من ديوان (أطياف الربيع):

أُمَاهُ إِنَّ لَدَيْكَ صَفْوَ حَنِينِي	وَالَيْكَ مَرْجِعُ فَرْحَتِي وَأُنِينِي
أَلْقَاكَ فِي كَنَفِ السُّكُونِ عِبَادَةً	وَأَقْبَلُ التَّرْبَ الَّذِي يُحْيِينِي

وَأَرْوَحُ أَعْشَقُ كُلَّ مَا أَنْجَبْتِهِ فَجَمِيعُهُ شِعْرٌ إِزَاءَ حَنِينِي
مَا النَّحْلُ، مَا هَذِي الدَّوَاجِنُ كُلُّهَا وَالْعَرَسُ إِلَّا الشَّعْرُ مَلءَ رَنِينِي
وَأَرَى الْأُلُوهَةَ فِيهِ بَيْنَ تَوَثُّبٍ وَتَطَائِيرٍ، وَوَدَاعَةٍ، وَسُكُونٍ
وَالنَّاسُ تَعْجَبُ مِنْ تَوَزُّعِ خَاطِرِي وَهُوَ الْمُوَحَّدُ فِيكَ غَيْرَ غَيْبِنِ
أُمَاهُ! مَوْتٌ كُلُّ لُبِّ شَاعِرٍ نَجْوَاكِ فَهِيَ مَفَاتِنِي وَفُنُونِي

وإذا كنت قد عرفت الآن أن ولع الشاعر بالطبيعة أصيلٌ في نفسه منذ حدوثه، فإني أريد أن أزيدك علمًا بشخصيته، وأنها واضحة قوية في ديوانه الأول، كما هي واضحة قوية في ديوانه الأخير، وأنت تستطيع أن تنقل قصيدة من (أنداء الفجر) إلى (الينبوع) وقصيدة أخرى من (الينبوع) إلى (أنداء الفجر) فلا تكاد تحس أن هناك فارقًا، وذلك مما يدل على أن شاعرنا مطبوع وأن شعر صباه يستطيع أن يقف مع شعره الأخير جنبًا لجنب، دون تواضع أو استخذاء. ولا أظنك الآن بحاجة إلى أن نحدثك عن خصائص شعر أبي شادي فهي جلية واضحة، وقد سبق أن ألمعنا إليها.

وكنتم أحب أن أحدثك أيضًا عن وطنيات أبي شادي، وفلسفته، وحبه العام، وإنسانيته، لولا خشية الإطالة، فليكن لذلك بحث آخر، وعسى أن أكون قد وفيت الشاعر بعض حقوقه، فكم له علينا وعلى الأدب والشعر من أياٍ بيضاء، وبحسبه أن قد بعث الشعر من مرقده، واستثار عناية النقاد بالشعر إلى درجة بعيدة، حتى قامت حوله معارك خطيرة، ودفع الشعراء في طريق التجديد والإنتاج الصحيح، كما قضى على النظم السطحي في المناسبات الطارئة، هذا النظم الرخيص الذي يُنسب زورًا إلى الشعر. وما أحوج ناقد أبي شادي أن يتذكروا دائمًا بيته المشهور:

كُنْ أَنْتَ نَفْسِي وَأَقْتَرِنُ بِعَوَاطِفِي تَجِدِ الْمَعِيبَ لَدَيَّ غَيْرَ مَعِيبٍ!

وستريهم الأيام خطرَ رأيهم فيه وفي شعره، فالأيام وحدها هي الفيصل، وهي لا شك كفيلة بالإنصاف.

عبد العزيز عتيق

(٣) مطران وأثره في شعري

بقلم صاحب الديوان

لو لم أهدِ مَنْ أهديتُ إليها هذه المجموعة الأولى المستقلة من شعري لَمَّا قَلَّ سروري بإهدائي إيها إلى أستاذي الجليل خليل مطران، فقد عرفتُ محبة هذا الرجل الإنساني وأستاذيته منذ ثلاثين سنة؛ إذ تعهدني صغيراً فبقيت أهدتي بهديه، وكان أول ناقد لأدبي وأنا لم أتجاوز بعدُ الثانية عشرة من عمري. ولي أن أقول عن تأثيره على شعري ما قاله المازني عن أدب شكلي: فلولا مطران لغلِبَ على ظني أنني ما كنت أعرف إلا بعد زمن مديد معنى الشخصية الأدبية ومعنى الطلاقة الفنية ووحدة القصيد والروح العالمية في الأدب وأثر الثقافة في صقل المواهب الشعرية. ومع هذا التأثير العميق في نفسي شَبْتُ روح الثورة والاستقلال فتحمَلت مسؤولية خواطري وتعبيري، وبهذا الروح لم أغير كلمة من هذا الشعر الذي له في نفسي قداسة الصبا وذكرياته وإن صرَّحتُ الآن في هذه الطبعة ببعض الأسماء و ببعض المناسبات، وبهذه العقيدة ربطتني بأستاذي هذا العمر الطويل رابطة مقدسة من المحبة المتبادلة والتجاوب الشامل لم ينل منها كَرُّ السنين مثقال ذرة، فكانت وما زالت مضرب المثل في عالم الأدب والصدقة.

وليس هذا هو كل شعري في سنة ١٩١٠، فقد كنت مكثراً — إذا جاز هذا التعبير — منذ حدثتي، وإنما هو مختارات منه، وقد سبقته مختارات نُشرت في الجزئين الأول والثاني من كتابي (قطرة من يراع في الأدب والاجتماع). فأما الجزء الأول من ذلك الكتاب فمعظم شعره من نظم الطفولة وسني ما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة وأقله في الخامسة عشرة، وأغلبه تقليدي النزعة وإن تكن فيه على قلتها حسنات أصيلة. وأما الجزء الثاني ففيه من شعري ما نظمته في السادسة عشرة والسابعة عشرة متأثراً جد التأثير بتعاليم مطران، وهو بدء نضوجي الشعري. وكان مأمولاً طبع ديواني الأول كاملاً طبعة فنية فيما بعد، ولكنني نُكِبْتُ نكبة عاطفية قاسية غيرت مجرى حياتي فغادرتُ مصر إلى إستانبول ثم إلى إنجلترا في أوائل سنة ١٩١٢ ولبثتُ مغترباً عن وطني أكثر من عشر سنين نظمتُ فيها الكثير من الشعر كعادتي ما بين أصيل ومترجم، إلى جانب آثارِي الأدبية الأخرى وفي مقدمتها ترجمة كتاب الأستاذ نكلسون في أدب اللغة العربية، وقد تركت ترجمته في مصر مع أوراقِي الأدبية الكثيرة. وعدت إلى وطني في أواخر سنة ١٩٢٢ وحقيبتني مثقلة بأثار أدبية شتى وبرسائل لها أهميتها مع كثيرين من أكابر الرجال

وفي مقدمتهم المرحوم محمد فريد بك، فإذا بالجمرك يتشبَّث بالاحتفاظ بهذه الأوراق وقتياً لفحصها، وقد كان سيف الأحكام العرفية مصلتاً فوق الرقاب، وإذا بهذه الأوراق لا تعود رغم ما بُذل من المساعي لإرجاعها، وإذا بها قد أُبيدت كما أُبيدت مآثوراتي التي تركتها في مصر. وما أحسب أديباً جنى عليه الاغتراب والحرب بأكثر مما جنياً عليّ، وقد ترك كلُّ هذا في نفسي أثراً أليماً جدّاً، ولولا تشجيع أستاذي العزيز مطران وأخي الحبيب حسن الجدّاي لزهدتُ في نشر أي جديد من شعري، فضلاً عن جمع ما تيسر جمعه من شتيته القديم، دع عنك إعادة طبع شيء من ذلك القديم ... وأين هذا قيمته من جيد شعري المفقود ومترجماتي وتصانيفي في أكثر من عشر سنين؟ ومَن لي الآن — في كهولتي ومتاعبي — بعواطف الصبا والشباب وبتلك الأحلام الذهبية وبتلك الموسيقى الثائرة التي تلاشت أصداؤها في المحيط؟

ومهما يكن من شيء ففي هذا الديوان الصغير ذكرياتٌ عزيزةٌ عندي عاطفياً وأدبياً: فأما الأولى فملموحة في ثناياه، وأما الثانية فترجع إلى ما فيه من التجاوب مع أدب أستاذي مطران خاصة. فطلاقة التعبير وحرية التأمل والاتجاهات الفكرية الجديدة؛ كل هذه تتمثل في معظم مقطوعات الديوان وقصائده، ومنها تدرجتُ إلى مذهب تحرير النظم كما أومن بتحرير النثر، متأثراً بأدب الجاحظ قديماً وبأدب مطران نفسه حديثاً وقد تجلّى أبداع التجلي في (المجلة المصرية) التي حرَّرها ببراعة أدبية منقطعة النظير.

وقد كان والدي برغم تربيته الأزهرية عصري الروح في كثير من تصرفاته، وكان السلامك بداره الكبيرة في سراي القبة (من ضواحي القاهرة) بمثابة صالون أدبي في كل خميس، فكان يجتمع لديه الكثيرون من أهل الفضل والأدب والمنزلة الاجتماعية، وبينهم أشهر رجال الصحافة والأدب والشعر في مصر حينئذٍ، وكان واسطة عقدهم أستاذي خليل مطران. وهكذا تعلقتُ بحب هذا الرجل النبيل منذ طفولتي، وأتاح لي إصدار والدي لجريدة (الظاهر) اليومية و(الإمام) الأسبوعية فرصاً شتى للاتصال بأعلام الأدب حتى أُشربت حبَّ الصحافة والأدب منذ صغري، فجرى قلبي بأول كتابة أدبية صحفية في سنة ١٩٠٥ على أثر حصولي على شهادة الدراسة الابتدائية وقد كان لها ما كان من الشأن في ذلك الوقت، وكأنما كانت بمثابة شهادة أدبية لي أيضاً! فلا عجب إذا عُنييت في سنة ١٩٠٨ بإصدار مجلة قصصية هي (حدائق الظاهر) وبإصدار كتابي الأدبي الأول (قطرة من يراع في الأدب والاجتماع)، وإن لم يتجلَّ نضوجي الأدبي قبل سنة ١٩٠٩، وهو نضوج نسبي على أي حال لا يقاس بجانبه نضوج الشباب في هذا الجيل الحاضر. ولولا افتتاني

بمطران لكان الأرجح أن لا تثور روعي الأدبية تلك الثورة في محاولتي أن أقتفي خطواته السريعة، ولولا مطران لما اجتذبتُ عناية كل من شوقي وحافظ بي. ومطران هو الذي فرح بديواني الأول هذا على صغره أكثر من فرحي، وكان واسطة التحية الكريمة من حافظ لهذا الشعر. وقد أحببتُ في حافظ وطنياته وحماسياته الفياضة بأصدق الشعور، فسحرتني بساطتها وصدقها واعتبرتها منسجمة مع العناصر الشعرية العالية في أدب أستاذي مطران الذي رأيت فيه مثلي الأعلى ... وهكذا بقي هذا الثالث مؤثراً في نفسي زمناً، ثم انفرد بالتأثير مطران، وإن كان هذا لا ينفي تأثري في صباي كذلك بشخصيتين بارزتين: الأولى شخصية أحمد محرم الذي أعده في شعره الوطني والاجتماعي أسمى منزلة من حافظ في جميع عناصر الشاعرية، ولكن له نفسية النجم البعيد المتواري لا يلمح تألقه وقوته إلا أهل البصر المديد، والأخرى شخصية مصطفى صادق الرافعي الذي لمحت فيه آيات الذكاء والشاعرية، ولكن يكاد ذكاؤه يفسد عليه عاطفته، فأحببت إلى الآن ذلك الذكاء المتوقد وقد بلغ ما كان ينتظر له بلوغه من الإبداع الأدبي والشهرة الفائقة. فهذا الديوان في حسناته من ثمار مطران الأولى وفي عيوبه من آثار سني المبكرة، ولا أحبّ لدي من نشر تهنئته التي تفيض بالغبطة الأبوية وبفرحة المعلم بتلميذه، فهي منه وإليه:

ديوانك الأول فَتَحَ لَهُ	مَا بَعْدَهُ فِي عَالَمِ الشُّعْرِ
أُبْرِعَ مَا كَانَ بِإِطْلَاقِهِ	مُمَهِّدًا لِلْخُلُقِ الْحُرِّ
أَصْعَدْتَ بِالْإِلْهَامِ فِيهِ عَلَى	أَجْنَحَةِ النَّسْرِ إِلَى النَّسْرِ
عَلَامَ لَا يَطْلُبُ مُسْتَأْسِرٌ	فَكَأَكُهُ مِنْ رَهَقِ الْأَسْرِ؟
وَمَا يَرْجِي مِنْ رُقْيٍ إِلَى	أَوْجِ الْمَعَانِي قَيْدُ الْفِكْرِ؟
(رَكِي) هَذِي نَهْضَةٌ لِلنَّهْيِ	فِي الْعَصْرِ كَأَنَّ حَاجَةَ الْعَصْرِ
لِلْفَنِّ سِرٌّ ضَنْ دَهْرًا بِهِ	وَأَنْتَ مُبْدِي ذَلِكَ السَّرِّ!
تَشْفُ عَنْهُ الْمُحْكَمَاتُ الَّتِي	نَظَمْتُهَا مِنْ فَاحِرِ الدَّرِّ
فَالْحُسْنُ مِنْ كُلِّ مَظَنَّتِهِ	يُبْرِزُ فِيهَا لِأُولِي الذِّكْرِ

والناقد الأدبي المؤرخ الذي يدرس آثار مطران وآثار تلاميذه — ولي الحظ والشرف أن أكون بينهم — يجد أن روحانية هذا المعلم الجبار وقوته الفنية قد تركت في نفوسنا أبعد الآثار، وأننا إنما نتابع رسالته في خطوات معقولة. فما نشوء الشعر المرسل ولا

الى الاخ ابنه العزيز
احمد بن ابراهيم عفا الله

ديار الله الاول فَنَجَّ له
أُبرَغ ما كان بالهلافة
أصعدت بالإسلام فيه عه
عدهم لا يطلب مستأجرة
وما برحني من رقة الى
نزلت هذي نغمة للنوى
للفن سيرة ضن دهرًا به
تشق عنه المحنات التي
فالحن من كل مطننا
ما بعده في عالم السر
سودا للخلق أحرر
اجتهدت السر الى السر
فما كره من رقة الأسر
ادوم المعاني قيّد الفكر
في العمر كانت حاجنة الصبر
وانت صدي ذلك البسر
ظننت من فاحر الدبر
برز في لادك الذكر
خليل طرارة

٢ ديسمبر سنة ١٩١١

(تهنئة مطران بخطه — مصغرة في النقل.)

الشعر الحر ولا ما بلغناه من الحركة التحريرية للنظم ولا ما نتناوله من الموضوعات الإنسانية والعالمية إلا الرقي الطبيعي لرسالة مطران، ولا يستطيع مطران نفسه أن ينكر ذلك بل هو يبارك بإخلاص هذه الجهود وإن شاركناه في تقدير ألوان الجمال عند مخالفينا من أصحاب المذاهب الأخرى قوية كانت أم ضعيفة، وهذا التسامح الفني — وإن يكن تسامحاً في حدود — هو خلق مطران المعهود، خلق من يفتش عن ألوان الجمال والسليقة الفنية أينما كانت وإن كان له ذوقه الخاص ومذهبه الخاص.

ومنذ استحسنت صديقي الأديب حسن الجداوي أن يضم ما يتاح له من الدراسات القيمة لأثاري المنشورة مساعدة على تفهمها، وجدت من كثيرين من الأدباء مشاركة له في هذا الاستحسان، وعلى هذا النسق الأدبي تصدر هذه الطبعة من (أنداء الفجر). وقد

الصلیغ ورائہ افی الابر احمد ذکی ابو شامہ

اذ كانت الحفلة في الاربع
 اصد الى فعبدة كسيرة لم تنفع
 عرفت طاعة الرئيس عنده شتم لواء بلع
 حياء بارض العالم في نفع اربع
 تقبلي نخلي او تعيب فلكم في المسع
 من ان ينضم الشا - ومكر المنوع
 فاجيد نورة النساء على ارفق المستع
 فحقت في شاة العوغة عنه تمار طبعي
 اصلا بلم - الكتا - امينة المنوع
 اصلا بناقلة البعير سه الطراز الاربع
 اصلا بصادقه تحت قلمي واجرت دمي
 جاءت رسولاً حادداً معه صافق لا بدني
 بنت طاية وحده بانزك المقتطع
 وشفت على توقيع كسبه مع عالم كعب
 نعم الملاكات بين سيد ودين سرع
 حسنة تأدية العوغة مع المصطفى الهي الاثني
 كسوانه لكن وفاء اكدته غير صنع
 وكوره فليشرح الوود النقة المستع
 وكلمه في الهمة فليكن غم كل مسع
 لاشقة انتزع للملى بجمال هذا المنوع
 بنجر ١٩٤

مسودة قصيدة مطران العينية بخطه (مصغرة في النقل)، وقد فُقد الأصل بين ما فُقد من أوراق الصبا.

كان في مقدمة من استحسن هذا النسق صديقي الشاعر الناثر الدكتور زكي مبارك؛ لأن هذه الدراسات تنقل القارئ إلى الجو الذي يتنفس فيه الشاعر فيتبين عن كثب حقيقة خواطره وعواطفه والعوامل المؤثرة عليه، وحينئذ تستطيع أن تتذوق آثار الشاعر أحسن التذوق.

يقول الأستاذ جارود (أستاذ الشعر في جامعة أكسفورد، في دراسته للشاعر كيتس، سنة ١٩٢٦) ما خلاصته: إن الشعر الذي يستحق المطالعة ربما لا يطالعه معظمنا بالعناية الواجبة التي قد تجعلنا أهلاً للاطلاع عليه. نحن بطبيعة الحال نطالب الشعر

بالمتعة، ولكن الشعر كذلك يطالبنا بالجهد حتى نستمتع به. فقد ألف الناس قراءة الشعر بغير ذلك التأهب الروحي الذي يعدُّ ضروريًا في العبادات الأخرى وبغير التنبه الوجداني الحتمي. والناس درجات في تفهم الشعر حتى إن ورد زورث قسمهم إلى أربعة أقسام ... وما كانت دراسة الشعر العالي أو نقده بالأمور الهيئية، فإن ذلك يتطلب غاية المواهب الفنية ومنتهى الثقافة والدقة حتى يوزن الشعر بمنتهى العناية والأمانة، كما يفحص الصيرفي الجواهر غير مخدوع بمظاهرها الخلابة ولا بصورها المتواضعة ...

ونحن نقرأ الكثير من نقد الشعر في وقتنا هذا مسرورين لاعتبار واحد وهو تنبُّه الناس إلى أهمية الشعر بين الفنون الجميلة وأثره في تهذيب المدارك وصقل الشعور، وما هذا بالقليل في ترقية الأمة فكريًا، ولكننا لا نكاد نُنعم النظر في معظم ما يُنشر من نقد حتى يتركنا الأسف الشديد على ما نلحظه من الاستهتار بالدرس والنقد، وعلى تدخل عوامل خارجية (كالحزبية السياسية وما إليها) في الأحكام الأدبية، حتى جرف هذا التيار الغاشم في طريقه غير واحد من مشهوري النقاد، فأصبحنا نرى المتصنعين واللصوص من الشعراء تُخلع عليهم ألقاب العبقرية لا لسبب سوى التضليل والحزبية والاعتبارات الشخصية، ونجد غيرهم من الموهوبين يُنكر عليهم حتى التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية ولو وردت نظائرها في القرآن الكريم وفي أشعار الفحول من المتقدمين مع أنها أدوات فنية لا غنى عنها للشعراء المتعمقين، وتؤخذ عليهم قوة الاندماج والتصوف فيما حولهم من عوالم جليلة ودقيقة، ويُمتحنون لتجاوبهم الكوني ولشعورهم بالشعر في كل شيء وبفنية الحياة المختلفة ... ومحالٌ إقناع هؤلاء السادة بأنهم لم يستكملوا بعد أدواتهم النقدية، ومع ذلك يجيزون لأنفسهم أن يعيبوا على الشعراء المطبوعين عدمَ استكمال أدواتهم الشعرية، ولو استكملوها باطلاعهم وبمرانتهم الطويلة أو بلغوا منها شأواً كبيراً، وأنه لا يكفي لنقد الشعر أن يكون الناقد شاعرًا في روحه نزاعًا إلى الإنصاف، بل ينبغي أن يكون كذلك واسع الثقافة واقفًا على المذاهب الأدبية وعلى أحدث أصول النقد. وبعد كل هذا فالغالب أن يأتي النقدُ صورةً من نفسية الناقد ومن ذوقه وميوله لا من الحق المطلق الذي لن يتحقق ... فالجزم في الأحكام النقدية أو التعسف إزاء هذا إنما يكون عبثًا واستهتارًا بالشعر وبالنقد معًا.

إن من أولى تعاليم مطران التي تشبعتُ بها منذ حادثتي وجوب الاطلاع، وقد أكببت على الاطلاع المتواصل منذ نشأتني حتى كنت أقلب «الأغاني» وغيره من أمهات الأدب العربي الميسورة في منتصف العقد الثاني من عمري تقليب المستهام بها، كما أن من

أولى تعاليمه ترك التصنع والحذلقه وإرسال النفس على سجيّتها ولكن إرسال المستعد المتمكن لا إرسال المستهين المهمل. وقد علقت بهذه المبادئ وطبققتها وترعرعت في نفسي وفي أدبي، فإذا خطوط تحت تأثيرها خطوات جريئة غير مسبوق إليها فلا يعني هذا بتر صلتني بها وإنما يعني برّي التام بروحها وغايتها. ولو تدبر الزملاء الناقدون وحاولوا التخلي عن المؤثرات الشخصية ونحوها لما وجدوا في تصرفاتي ونزعاتي الأدبية وفي تصرفات أقراني ونزعاتهم إلا تقدماً طبيعياً بتعاليم مطران التجديدية، فالحياة حركة واطراد وأما السكون فهو العدم.

يعتمد الشعر التقليدي وكثير من الشعر الحديث على الاستهواء الموسيقي لتخدير الأعصاب، ذلك التخدير الخفيف الذي يجعل المشاعر قابلة للتأثر برسالة الشاعر أقوى التأثير. ونحن لا نعيب اقتران الشعر بالموسيقى، وكيف نعيب ذلك وقد نظمنا ما نظمنا من المسرحيات الغنائية ومن شعر الغناء وبينما نرى خيراً كثيراً في تزاوج الفنون الجميلة؟ ولكن ما نعيبه هو عبودية الشعر للموسيقى حيثما ينبغي أن تكون للشعر سيادته، فبدل استهواء المشاعر بالأوزان وبالقوافي الرتيبة وحدها، نرى أن الشعر جدير بأن تكون له ذاتيته المستقلة الجميلة المؤثرة، وأن يكون الاستهواء والتأثير الوجداني منه ذاتياً، أي من إحياء المعاني ومن روعة الخيال، لا من الموسيقى اللفظية أولاً وأخيراً. والشاعر الذي يقول:

الشَّاعِرُ السَّاجِرُ مَنْ أَسْكَرَهُ؟ مَنْ عَلَّمَ الشَّاعِرَ هَذَا الشَّرَّهْ؟
عَيْنَاكَ يَا رُوحِي وَيَا نِعْمَتِي! عَيْنَاكَ إِلَهَامُ الَّذِي صَوَّرَهُ!

إلى آخر هذا الشعر الغنائي، وقصائد أخرى كثيرة مثله، لا يشقُّ عليه أن يلتزم هذا الطراز من الأداء الخلاب الرنان، ولكنه يؤثر أن يؤدي رسالة «الشعر بالشعر للشعر» وهي التي يعتبرها مربية للمواهب الشعرية ضامنة لاستقلالها، حتى إذا ما أراد الشاعر في أي وقت تزواجها والموسيقى اللفظية كانت رائدة ولم تجئ تابعة، بعكس شعر العامة والشعر البدائي الذي تكون فيه الموسيقى هي الغالبة، وهو الشائع الآن.

ولا أستطيع أن أدعي أن في هذا الديوان شاعرية تفوق ما فيه من موسيقية، ولعل هذا هو سر رضاء أصدقائي المحافظين عنه رضاء خاصاً، بعكس دواويني الأخيرة التي تتجلى فيها الشاعرية المسيطرة كل التجلي فتؤثر فوراً على النفوس المهيأة لها ولا تتحایل عليها بالإيقاع الرتيب، فهذا الشعر الجديد المتحرر لا يرضى عنه أصدقائي المحافظون.

ومن هؤلاء الأصدقاء مَنْ يعرف مبلغ عنايتي بنقد نفسي بنفسي بشدة وقسوة، فلا يتورط في اتهامني بالإهمال أو بالعجز عن البيان التقليدي؛ لأنه يعلم علم اليقين مبلغ طواعية اللغة لقلمي نظمًا ونثرًا، وإن لم أقنع أبدًا بإنتاجي. ومنهم مَنْ لا يعرف ذلك فيتورط ذلك التورط، ويساعدُ سكوتي وقلة مبالاتي على سريان العدوى إلى النقد — وحتى إلى أذكيائهم — فيعرفون بما لا يعرفون عن طاقتي البيانية وقدرتي على التعبير، في حين أنني لو شئتُ لجعلتُ كل شعري في مثل ذلك الأسلوب المدرسي الذي رثيتُ به المثال مختار فهللوا له طويلًا وتمنوا عليَّ الإكثار منه، وقد جاء في استهلاله:^١

مناحَةَ الْفَنِّ! مَاتَ الْفَنُّ وَالْعِيدُ وَمَاتَتِ الْيَوْمَ فِي الْجَوِّ الْأَنَاشِيدُ!

ولو تدبروا وتفهموا لما لجأوا إلى مثل ذلك النقد العجيب، ولحصروا همهم في دراسة مذهبنا الفني في الشعر، معتمدين على القوة الشعرية في ذاتها لاستهواء المشاعر حتى يؤدي الشعر رسالته، من إعزاز الخير وتقديس الجمال، تأدية حرة قوية مستمدة من صميمه، فلا يكون فيها تابعًا لفن آخر ... ونتيجة هذا المذهب تقوية المواهب الشعرية إلى درجة بعيدة، فلا نعود نسمع أن الشعر شعر قبل كل شيء، وأن القائل المتوجس: «إني لأسمع صوتًا يقطر منه الدم!» هو شاعرٌ شاعرٌ وإن لم تقع ألفاظه في نسق موسيقي، ولا في سلك منظوم وإن لم يعده قومه شاعرًا.

وأكرر أنني أعد مذهبي هذا هو وحده التطور الطبيعي لمذهب مطران. ومما يؤسف له أن يتصدى لنقدي وللنقد الأدبي عامة كثيرون ليست لديهم المؤهلات لذلك ولا الموهبة النقدية، وهؤلاء يفسدون بجلبتهم الجوّ الأدبي ويؤثرون عن طريق الإيحاء النفساني حتى على خاصة النقد أو على بعضهم أحيانًا فيخلطون خلطًا في أحكامهم، حتى لا يتورّع معظمهم عن الحكم على الأعمال المتزنة بالإسفاف، متناسين أن الأديب الناضج المطاع لا يمكن أن يسف، وإنما تنوع آثاره يوهم الناقد السطحي أن فيها العالي والمتوسط والمنحط، بينما لا تكون إلا صورًا مختلفة من الحياة المتنوعة التي يعالجها، فحتم أن تجيء مختلفة البيان والروح والقوة والموسيقى حتى تنسجم وموحياتها وظروفها. ولن

^١ مجلة أبولو، أبريل سنة ١٩٣٤، ص ٦٩٧.

يكون النقد لشاعر من الشعراء منصفًا — على فرض أهلية الناقد — إلا إذا أخذ جميع آثار الشاعر كوحدة أدبية متماسكة.

وإذا ضربنا صفحًا مؤقتًا عن الشعراء ونظرنا إلى المصورين أمثال محمد حسن ومحمود سعيد وشعبان زكي، فإننا نجد الأوّل في تصوير أشخاصه يميل إلى نزعة تصوفية تمثل كنه المرسوم وشخصيته المستترة، بينما يميل الثاني إلى ما سمّيته بالفن التوكيدي الذي يجعل الصورة كالتمثال المجسم الحي، في حين أن الأخير يحن دائمًا إلى التعبير التأثري الذي يعطيك في نظرة خاطفة الشمائل البارزة للصورة. ولك ولي أن نختلف على أيّ من هذه المذاهب أفعل في نفسك وفي نفسي، ولكن ليس لي ولا لك أن نتهم أحدًا من هؤلاء الفنانين البارعين بالعجز وأن اختيار هذه الطريقة أو تلك راجع إلى قصور في الأداء بدل رجوعه إلى اختلاف في الذوق الفني، بل الأوّل بي وبك أن نتفهم رسالة كل منهم في تقدير واحترام وإن لم تجتذبنا إلا إحداها، فكل منهم أستاذ لمدرسته. وهذه الروح السليمة هي التي ما تزال تنقص نقاد الأدب عندنا لتضع حدًا لأحكامهم المدهشة ولشططهم وتهورهم.

يقول أستاذي مطران في تصدير (ديوان الخليل): «قال بعض المتعنتين الجامدين من المتنطسين الناقدين: إن هذا شعر عصري، وهموا بالابتسام، توهم أن من بوارق أسرتهم ما يكون أشد من وقع السهام. فيا هؤلاء، نعم، هذا شعرٌ عصريٌّ وفخره أنه عصري وله على سابق الشعر مزية زمانه على سالف الدهر. هذا شعر ليس ناظمه بعبده، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح، ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ودابر المطلع وقاطع المقطع وخالف الختام، بل ينظر إلى جمال البيت في ذاته وفي موضعه وإلى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها، وفي تناسق معانيها وتوافقها، مع ندور التصوّر وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشفوفه عن الشعور الحر وتحري دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر ... على أنني أصرح غير هائب أن شعر هذه الطريقة — ولا أعني منظوماتي الضعيفة — هو شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعًا.» وقد سمعتُ من أستاذي مطران في مدى السنين الطويلة التي نعمت فيها بصداقته وأستاذيته الكثير من الشواهد والتفاسير لهذا المذهب الذي تعلقتُ به نفسي منذ نعومة أظفاري وعملتُ تدريجيًا على التوسع فيه توسع النشوء والارتقاء عن طبع مُؤاتٍ، متابعًا نضوج سني ونمو ثقافتي وازدياد تجاربي وتأملاتي، فتطورت لغتي كما تطور العصر

الذي نعيش فيه، وتطورت نفسيتي التي أحببت وتعذبت وساحت وجرّبت، وتطورت تبعاً لذلك أختلي وتعايري ومثلي العليا. مثال ذلك تجاوبي والطبيعة، فقد كان ذلك محدوداً في ديواني الأول، تقليدي العبارة غالباً، ولكنه لم يكن تقليدي النزعة بل مستمداً من الحياة ذاتها كما في قصيدتي «أنفاس الخزامى» (ص ٤٩)، فإنني نشأت أحب هذه الأزهار وأحب النحل التي شغفتُ بها منذ سنة ١٩١٠ ولأحظتُ افتتان النحل بها، ثم تبينت من أستاذي في علم النبات أنها أزهار مصرية صميمة فازداد إعجابي بها. وفي القصيدة المذكورة بعض التطلع إلى المعنويات ولكنها لا تقارن بقصيدتي «حلم الفراشة» (ص ٧٧ من ديوان «الينبوع») التي أقول فيها:

تَطِيرُ إِلَى الزَّهْرِ فِي خَفَةٍ	لَتَمَنَّصَ مِنْهَا الرَّحِيقَ الشَّهِي
وَمَا تَتَمَنَّى سِوَى زَهْرَةٍ	تُبَادِلُهَا لَوْنَهَا الْقُرْمُزِي
تَحُومُ عَلَيْهَا وَتَنْشَقُ مِنْهَا	جَمِيلَ الشَّدَى، فَالشَّدَى نَفْسُهَا
وَتَأْبَى التَّحَوُّلَ فِي النُّورِ عَنْهَا	فَأِحْسَاسُ زَهْرَتِهَا جَسُّهَا
كَأَنَّ بِزَهْرَتِهَا أَصْبَحَتْ	فَرَأَشْتَنَا الْحُلُوةَ الْعَاثِرَةَ
وَتِلْكَ الْفَرَّاشَةُ حِينَ انْتَشَتْ	عَلَى النُّورِ زَهْرَتُهَا الطَّائِرَةَ
تَبَادَلْنَا مَا لِكِلْتَيْهِمَا	مِنَ الْحَظِّ وَالصُّورَةِ الْفَاتِنَةِ
فَصَانَ التَّبَادُلُ نَفْسَيْهِمَا	وَعَاشَا بِهِ عَيْشَةً أَمْنَةً!

كَذَلِكَ تَحْلُمُ فِي لَهْوِهَا	فَرَأَشْتَنَا الْحُرَّةَ الْبَاسِمَةَ
فَدَعَا تَغَايُلُ فِي وَهْمِهَا	خَيَالَاتِ سَاعَاتِهَا الْحَالِمَةَ

فهذه الأبيات هي وليدة الطبيعة التي أعشقها والتي تلقيت عن مطران كما تلقيت عن صميم وجداني إيماني بها. وهي متحررة في أسلوبها، عصرية الألفاظ، آخذة بأيسر وأصدق مذاهب البيان، ولكنها إلى جانب ذلك قوية الخيال مندمجة كل الاندماج في الطبيعة. وليس تشبيه الزهرة بالفراشة بالتشبيه المستحدث، فهو شائع في الأدب العالمي، ولكن هذه الصورة المركبة المتشعبة الدقيقة بأخيلتها ومعانيها هي صورتني، ولا يمكن أن يكون لغيري أي نصيب فيها، لأنها من صنع نفسي وخيالي وعبادتي للطبيعة ومن توليد شاعريتي الحرة. وأنا أدين في كل هذا لمطران، فقد غرس في نفسي حب الاطلاع

على سفر الطبيعة، إلى جانب اطلاعي العام الذي شمل مئات الكتب والمراجع في ثلاثين عامًا سلختها محبتي للأدب من حياتي، كما غرس في نفسي الاعتداد الفني الذي يزجيني بعد كل هذا إلى إرسال شعري على سجليتي.

وقد تعلمتُ من مطران احترام المذاهب الأدبية المختلفة واحترام النقد، مهما حق لي أن أتشبث بأرائي الخاصة، فإن الأعمال الأدبية بعد إنتاجها ملك للجمهور، والجمهور حر في أن يُقبل عليها أو لا يقبل، والطبائع الإنسانية جد مختلفة، وللنقاد كل الحق في حرية النقد فيجب احترام حريتهم كما نطالبهم باحترام حرية المؤلفين، ولا يجوز أن يعدو نقاشهم البحث الأدبي المحض الذي يستفيد منه الأدب، لا أن يكون لونًا من الملاكمة التي تخالف أدب النفس. ولعلي وفقت في حياتي الأدبية إلى تطبيق تعاليمه هذه، وإن تعصب لي في مواقف كثيرة من تعصب من أصدقاء ومريدين.

ولا شك في أن نفسية مطران المتسامحة المستوعبة هي التي ألهمتني حب الجمال على اختلاف صوره وكرهية الفردية ورغبتني الملحة في التفتيش عن مواطن الحسن في كل ما أقرأ من نثر ونظم. فمذهب الفردية في الأدب لم يؤمن به مطران بل كان ضده دائماً، وكذلك كنتُ وما زلت ضده كما تدل كتاباتي الكثيرة وأحدثها كتاباتي في مجلة (أبولو)، واحترام الغير وبغض الإباحية هو في نظرنا كاحترام النفس والحرص على الكرامة سواء بسواء، فاعتدأنا بمذهبنا الأدبي وإنتاجنا لا ينافي تقدير مجهودات من يخالفنا مذهباً ولا يسيغ إباحتها والاستهتار بها. ولذلك أنحى مطران كما أنحيت على من يختطفون خواطر شعراء الفرنجة وغيرهم في غير تورع، بل في انتقاص لمن ينقلون عنهم ... فلكل شاعر أن يطلع، بل عليه أن يطلع، وأن يهضم ما يطالعه، وأن يتأثر بمن يعجب بهم، ولكن عليه بعد هذا أن لا يسقط شخصيته، وعليه أن يرسل نفسه على سجليتها، وأن يعترف بفضل من تأثر بهم حيثما وُجدت المناسبات، وتبعاً لذلك كانت إشارتي إلى الشاعر جبرائيل سيتون وإن كنت لا أذكر الآن مبلغ تأثري بشعره عندما نظمت أبيات موسيقى الوجود (ص ٦٤) فإني لم أهتدِ إلى قصيدته المشار إليها.

وإذا أخذنا على سبيل المثال الشاعر الروسي بوشكين حامل جائزة نوبل في الآداب فلا جدال في أنه تأثر بشعراء كثيرين من شعراء الغرب كما تأثر شكسبير في إنجلترا وجيته في ألمانيا، بل وعباقر الشعراء في أنحاء العالم، ولكن تغلبت شخصياتهم على أعمالهم في النهاية، وهذا ما اعترف به دستوفسكي في رسالته عن الشاعر بوشكين. ولقد تأثرتُ بمطران وشوقي وحافظ ومحرم والرافعي في نواحٍ مختلفة، ولم أنكر مرةً فضل

هؤلاء الأعلام، حتى في الوقت الذي ثارت ثائرة المدرسة الشوقية على الشعراء المجددين ونالني الكثير من لفحات نيرانها، فإني أبيتُ إباءً مجاراةً لأصدقائي الذين تعصبوا لي أشد التعصب ... فإذا تجلت شخصيتي وازداد تجليها وسيطرتها التامة على عناصر شعري وقد دانيت منتصف العقد الخامس من عمري فليس في ذلك بدعة، بل لي كل الحق في التمكين لمذهبي الحر الذي أعتبره متفرعاً على مذهب مطران أو صورة منه هي صورة الرومانطيقية الشاملة.

يُذكر بالخير لسانت بيف انتصافه للشاعر الوجداني ألفريد دي موسيه من زميله ومنافسه الشاعر الشهير لامارتين، وهو انتصاف قوامه الشجاعة الأدبية الجمّة. وكما بوَدِّي أن أرى مثاله متكرراً أماناً، فتتصاف مواهب شعراء الشباب بدل هذه الغيرة الحمقاء التي نراها من بعض الكهول والشيوخ شعراءً ونفاذاً. وروح الإنصاف هذه ملموسة عند مطران، ولولاها لما أنصف مثلي في دوائر الخاصة على الأقل، فهذا فضل آخر لمطران كان له أثره البهيج في شعري بقدر ما كان لوجود البيئة عامة من آثار أخرى في شعري الثائر.

الشخصية الفنية الحرة — بل حسبي أن أقول الشخصية الفنية — هي أهم ما يقدسه مطران، وهي ما تعودتُ أن أقدسه في ذاتي وفي غيري صديقاً كان أم خصيماً، وما أعرف إلا الخصومة البريئة: خصومة التفكير، وأما ما عداها فليس أهلاً لأن يعد خصومة، بل هو ما يُزدرى ويُنسى. وهذه الشخصية الحرة هي روح شعري، وأبى أن يُنكر علي استحقاق حريته، فقد عشت وما زلتُ أعيش تلميذاً على الطبيعة وعلى الثقافة الإنسانية، أجمع بين الاعتداد بنفسي وبين نَهَم الفنان الذي لا يرضى عما بلغ من مستوى فني ولا تنتهي مطامحه، فهو يتشبث بمذهبه وباعتداده وبكرامته، ولكنه في الوقت ذاته يعزف عن التصنع الشائع وعن الادعاء الباطل وعن الكبرياء السخيفة، فهذه ألوان من التزوير التي تعادي روح الأدب الصميم، وما ابتلي أحد بها إلا كان شراً على الأدب والأدباء. وما ترجع المعارك الدامية المشبوبة الآن بين الأدباء عامة إلا إلى هذا الطراز من المتصنعين والأدعياء، بلغت ما بلغت مكانتهم وذكاؤهم وآثارهم، ومعظمهم ممن انغمسوا في السياسة انغماساً طغى على ضمائرهم وعلى موازينهم الأدبية.

وصفوة القول إن أثر مطران في شعري هو أثر عميق لأنه يرجع إلى طفولتي الأدبية ويصاحبني في جميع أدوار حياتي، وإذا كان استقلالي الأدبي متجلياً الآن في أعمالي فهو في الوقت ذاته يمثل الاطراد الطبيعي للتعاليم الفنية التي تشربتها نفسي الصبية من ذلك

الأستاذ العظيم، وما زالت تحرص عليها نفسي الكهلة الوفية ناظرةً إلى آثار الصبا وإلى
معلمي الأول بحنان عميق هو أشبه الشعور بالتقديس والعبادة.